موريال ميراك-فايسباخ

مهووسون في السُّلطة

تحليل نفسي لزعماءٍ استهدفتهم ثورات ٢٠١١



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

مهووسون في السُّلطة

تحليل نفسي لزعماءٍ استهدفتهم ثورات ٢٠١١

موريال ميراك - فايسباخ





شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص.ب.: ٨٣٧٥ - بيروت، لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢٢ - ٧٥٠٨٧٢ - ٣٤٤٢٣٦ - ١ ٩٦١+

تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+

email: tradebooks@all-prints.com

website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١٢

ISBN: 978-9953-88-614-5

تدقيق لغوي: محمد زينو شومان

تصميم الغلاف: ريتا كلزي

الإخراج الفني: فدوى قطيش

المحتويات

القذّافي: «إذا كنّا نواجه مجنوناً كحسين يريد أن يقتل شعبه، فلا بدّ من إرسال من يقبض عليه ويضع الأغلال في يديه، ويمنعه من فعل ما يفعل، ويُحيله على مستشفى مجانين».

الملك فيصل: «لا أظنّ أن من اللائق أن تصف ملكاً عربياً بأنه مجنون يجب أن يوضع في مستشفى مجانين».

القذافي: «لكن أسرته كلّها مجانين .. والمسألة مسألة سجل».

الملك فيصل: «حسناً .. ربّما كنّا كلّنا مجانين».

الرئيس عبد الناصر: «في بعض الأحيان حين ترون جلالتكم ما يجري في العالم العربي، فإن ذلك يصبح صحيحاً. وأقترح أن نعيّن طبيباً يعايننا بصورة منتظمة ليتبيّن من هم المجانين من بيننا».

الملك فيصل: «أريد أن يبدأ طبيبك بي، لأنني أشكّ، بالنظر إلى ما أراه، في أني أستطيع الاحتفاظ بتعقّلي».

مؤتمر القاهرة، أيلول/سبتمبر ١٩٧٠.

محمّد حسنين هيكل، «الطريق إلى رمضان».



مقدّمة

عندما نزل آلاف التونسيين، في أواخر كانون الأول/ديسمبر، إلى الشوارع مطالبين بتنحّي الرئيس زين العابدين بن علي وتمهيد الطريق لإقامة نظام ديمقراطي جديد، شهق العالم غير مصدّق وخشي الأشخاص الموجودون في أعلى مراتب الحكم من الأسوأ. بيد أن ثورة الياسمين نجحت – ولو دفعت ثمن ذلك بعض الخسائر في الأرواح التي سقطت برصاص النظام – واضطر النظام التسلّطي الذي حكم لعقود إلى الخضوع والفسح في المجال لحكومة انتقالية تُشرف على الانتخابات المؤدية إلى أوّل برلمان يُنتخب ديمقراطيّاً وحكومة منذ أكثر من نصف قرن.

أعطت سابقة تونس دفعةً لمواطني مصر فأطلقوا ثورتهم بعد أسابيع من التعبئة السياسية ونجحوا في إسقاط نظام حسني مبارك «آخر الفراعنة». وسرعان ما انضمّ اليمن وليبيا إلى الثورة العربية وانطلقت الاحتجاجات حتى في الممالك والإمارات والمشيخات المتجذّرة في الأردن والخليج العربي.

حُدّدت، وعلى نطاق واسع، الدوافع الاقتصادية ـ الاجتماعية لمثل هذه الانتفاضات الدراماتيكية في أنحاء العالم العربي على أنها: معدّل البطالة المرتفع، وخصوصاً في أوساط الشباب الذين يشكّلون غالبية السكان، والفجوة الآخذة في الاتساع بين الأغنياء جدّاً – أولئك الذين استفادوا من فساد الأنظمة المستبدّة واقتصاداتها التي تُدار بأسلوب المافيا – والفقراء جدّاً – وبعضهم يعيش في مصر

بأقل من دولارين أميركيين في اليوم؛ والحكم الديكتاتوري الذي استمرّ لعقود مع قوانين طوارئ تسمح بالتوقيفات الاعتباطية وبالاعتقالات الطويلة من دون إصدار اتهامات؛ وتعذيب السجناء السياسيين الذين تُقدّر أعدادهم بعشرات الآلاف؛ وإلى ما هنالك.

سادت الأوضاع البائسة لعقود من دون أن تُواجه بمعارضة جدّية. ثم فجأة – أو هكذا بدا للمراقبين ولأجهزة الاستخبارات الأجنبية التي لم تقم بعملها – نزل الناس إلى الشوارع. والحقيقة هي أن الأمر لم يحصل على هذا النحو الفجائي. فحركات المعارضة في تونس ومصر، أو سواهما، لم تكف قط عن الوجود بالرغم من تعرّضها للقمع الوحشي، وتمكّنت، بفضل مناورتها داخل تخوم الدولة البوليسية، من الإبقاء على اتصالها بالأفراد الذين يتوافقون في الرأي وبالمجموعات المُنظّمة في شبكات فضفاضة. ظهرت تنظيمات المجتمع المدني في تونس وازدهرت مستفيدة من حملة العلاقات العامة التي قام بها بن علي بغية إقناع الغرب بأنه في طور تحرير بلاده سياسيّاً. ووفّرت هذه الاتحادات، بالرغم من أنها لا تمارس أي سلطة سياسية، وسائل تجمع المواطنين في شبكة اجتماعية شكّلت في ما بعد الطاقة التنظيمية للثورة.

انتقلت مجموعات المعارضة في مصر، على مدى عشرة أعوام، إلى أي ساحة تتوافر لها. وإذا صحّ أن الثورة التي اندلعت في كانون الثاني/يناير قد حرّكتها الأحداث في تونس، فإن الصحيح أيضاً هو أنه سبق للمعارضة المصرية أن شرعت في تنظيم نفسها بالفعل منذ العام ٢٠٠٠. وأدّت الانتفاضة الفلسطينية الثانية وحرب العراق إلى تظاهرات في جامعة القاهرة ما بين ٢٠٠٠ و٢٠٠٤؛ وشهدت السنة التالية تزويراً كبيراً في الانتخابات البرلمانية. وظهرت حركة «كفاية» إلى الوجود في إثْر مؤتمر صحافي عقده رئيس الوزراء الماليزي السابق مهاتير محمّد في إبان زيارته القاهرة قال فيه بأنه استقال لأن «٢٢ سنة تكفي». وأضحت «كفاية» اسم حركة معارضة قوية لمبارك. وحصلت في ٢٠٠٦-٢٠٠٧ إضرابات مناهضة للخصخصة التي فرضها صندوق النقد الدولي. وأعرب المتظاهرون في ٢٠٠٦ عن تضامنهم مع لبنان، وفي ٢٠٠٨ عن تضامنهم مع الغزّاويين في مواجهة العدوان الإسرائيلي. وأسّست في ٢٠٠٨

حركة شبيبة «السادس من أبريل» بوصفها لجنة لدعم إضراب العمّال المعارضين للخصخصة. ثم عندما أخذت مسألة الانتخابات الرئاسية مكانها على روزنامة ٢٠١٠ برزت حركة «البرادعي رئيساً»، إلى جانب حركة «كلّنا خالد سعيد» بقيادة وائل غنيم. وخالد سعيد هو اسم كاتب مدوّنة إلكترونية مصري تعرّض للتعذيب الوحشي وقُتل في حزيران/يونيو ٢٠١٠ على أيدي أجهزة الأمن المصرية. وأجريت في الوقت نفسه الانتخابات البرلمانية المزعومة التي تم التلاعب بها بإحكام، بحيث أن القلّة من رموز المعارضة الذين سُمح لهم بالحصول على مقاعد وجدوا أنه تم القضاء على القسم الكبر من صفوفهم. وأخذ المناخ الاجتماعي الاقتصادي في الاحتدام ولم يحتج الأمر إلا إلى عود ثقاب لإشعال الاحتجاج[١]. وعود الثقاب هذا اشتعل في تونس.

تميّز ما أثار الانتفاضة في تونس بالرمزية الشديدة. إذ لم يجد شاب، بالرغم من تسلّحه بشهادة البكالوريا، أي وسيلة أخرى لإعالة والدته الأرملة وإخوته السبعة سوى أن يجول بائعاً خُضَره على عربة. وفي أحد الأيام، حينما دقّق أحد رجال الشرطة في أوراق محمّد بوعزيزي ووجد أنه لا يمتلك «رخصة»، صفعه على وجهه وأهان والده المتوفّى وقطع عليه باب رزقه. وناشد بوعزيزي مكتب الحاكم إصلاح الأمر، لكنه زُجر بخشونة. فغمر نفسه بالكاز وأشعل النار ومات متأثّراً بحروقه بعد ذلك بثمانية عشر يوماً. وما يمكن إساءة فهمه على أنه تصرّف شخص يائس شكّل في الواقع حدثاً مأسويّاً لخّص بلوى شعب بأسره. إنه فعل رجل قرّر التضحية بنفسه لإيصال رسالة إلى السلطات مفادها أنه يفضّل الموت حفاظاً على كرامته الإنسانية على التعرّض لمثل هذا الإذلال التعسّفي. وعاده الرئيس بن علي في المستشفى، لكن لم يمكن لمثل هذه المبادرة الأبوية أن تحتوي الغضب الشعبي.

ستدخل تضحية بوعزيزي التاريخ إلى جانب تضحية يان بالاخ في ربيع براغ في ١٩٦٩ أو، في عودة أكبر في الزمن، إلى جانب بعض المحطات المهمة في حركة الحقوق المدنية الأميركية في الستينيات من القرن الماضي، عندما أدى قرار روزا

(١) Mirak-Weissbach, Muriel, “The Birth of the New Egyptians,” Global Research, February 15, 2011, http://www.globalresearch.ca/index.php?context=va&aid=23231

باركس الدفاع عن كرامتها ككائن إنساني بدلاً من التخلّي عن مقعدها في الباص لشخص أبيض، إلى تحفيز التحرّك الجماهيري الذي أدى في النهاية إلى إلغاء نظام التمييز العنصري ضد الأميركيين السُّود.

أدّت المسألة الخلقية/السياسية التي أثارها بوعزيزي إلى إشعال الثورة المصرية. وأبلغني محمد سيّد سليم، البروفيسور المصري الصديق والمفكّر المعروف، أن البؤس الاقتصادي الذي عاناه الشباب المصري ليس في ذاته ما عبّأ هؤلاء الشباب في الأيام الأولى على التظاهرات، بل ما رافق ذلك من مهانة اجتماعية ونفسية. وقال لي أن في وسع الشباب المصري «تحمّل الحرمان، ولكن ليس الإذلال». وتوقّع في مقالة في ٢٣ كانون الثاني/يناير في «العربي» أن تتبع مصر المسار التونسي لأن البلدين يتشاركان في الظروف نفسها. وقد اتضحت ظاهرة مشابهة في مختلف انتفاضات الفلسطينيين في الضفة الغربية وغزّة: فهم لم يرفضوا الاحتلال الإسرائيلي لأرضهم وحسب، بل أيضاً سلب كرامتهم كبشر.

أما العامل الشخصي الحاسم في نجاح الحركة، فهو أن الشباب المصري الذين شرعوا في التظاهرات برهنوا على شجاعة في تحدّي النظام وما يمتلكه من أجهزة الدولة البوليسية. فقد تغلّبوا بعد أحداث تونس على الخوف الذي أبقاهم ومواطنيهم، لعقود، أسرى الاستسلام. وحافظت الحركة على أرضيتها الخلقية العالية بعدما ردّ النظام بهجمات شنّها رجال الشّرطة، وورود أول التقارير عن وقوع إصابات. ولم ترد على العنف بالعنف، بل استمرّت في توسيع التعبئة. ويستذكر الدكتور غيرهارد فولدا، الديبلوماسي الألماني السابق الذي صودف أنه كان في القاهرة عند اندلاع الثورة، وجوده في ميدان التحرير في اليوم الذي فتحت الشرطة النار على الحشود. وقال في اجتماع للجمعية الألمانية ـ العربية في برلين في ٢٦ شباط/فبراير، أنه تمتم في صلاة صامتة في ذلك الوقت، بالرغم من أنه لم يعد يعتبر نفسه رجلاً متديّناً وهو الذي لم يطأ أرض كنيسته منذ سنوات طويلة. وكان جوهر صلاته: أرجوك يا ربّ دعهم لا يردّون على العنف بالعنف. وقال أنه يشكر الله على أن جماهير المحتجّين لم يردّوا بالعنف وهو ما حسم نتيجة الثورة.

والحقيقة هي أن الالتزام المبدئي بالعصيان المدني غير العنفي هو الذي حدّد النتيجة في تونس ومصر[1].

علم النفس الاجتماعي للعملية الثورية

اختبر كل من تابع التطورات عبر محطات التلفزة الفضائية في تلك الأيام والأسابيع أمراً جديداً لاح في الأفق، في تونس أوّلاً ومن ثم في مصر.شرع الشبّان في المطالبة بحقوقهم وأفصحوا عن مطالبهم بطريقة لم يسبق لها مثيل. وصاح المتظاهرون في تونس بأن «على بن علي أن يرحل»؛ وقابلتها صيحة القاهرة «مبارك يجب أن يرحل»؛ وأعقبت ذلك المطالبة بإسقاط النظام وبإنهاء قوانين الطوارئ وبدستور جديد على أن تلي ذلك انتخابات جديدة. وطالب اليمن «برحيل صالح» وليبيا «بسقوط القذّافي» واحتشد السوريون في البداية مطالبين بإصلاحات ديمقراطية لكنهم ما لبثوا أن صعّدوا من شعاراتهم مطالبين بتغيير النظام بعدما واجهتهم الشّرطة بوحشية.

هذا في ما يتعلّق بالمطالب السياسية الرسمية.وقد استمدّ المتظاهرون القوّة من استعدادهم للمخاطرة بحياتهم من أجل القضية. وما قالوه لمشاهدي التلفزة في العالم عبر القنوات الفضائية، سواء على نحو كفاحي أو هادئ، هو: سنبقى هنا وسنتظاهر إلى أن ننتصر. سنبقى هنا حتى ولو تطلّب ذلك موتنا. وقال أحد الشبان وهو ينظر إلى عين الكاميرا: «إنها مسألة حرّية أو موت». وقد لا يكون سمع بتاتاً بكلام باتريك هنري الشهير: «أعطوني حرّيتي أو اقتلوني»، لكنه بلّغ الرسالة نفسها. وقد اعتقد مارتن لوثر كينغ أن على الشخص ليعرف ما يتطلّبه كونه إنساناً أن يستعدّ للموت من أجل قضية. وقال في هذا الصدد: «لا يستحقّ المرء الحياة إذا لم يكتشف ما هو مستعدّ للموت من أجله».

(١) Special report: Inside the Egyptian revolution," April 13, 2011, Nonviolent Action Network,,, http://nonviolentaction.net/?p=4186, Sharp, Gene, From Dictatorship to Democracy: A Conceptual Framework for Liberation, The Albert Einstein Institution, Fourth U.S. Edition, 2010.

يشكّل هذا ثورةً أساسيةً في المنحى الفكري. وقد برهن التاريخ في حركة الحقوق المدنية الأميركية في الستينيات، أو في فترة أكثر حداثة في الثورة السلمية لشعب ألمانيا الشرقية في ١٩٨٩، أنه عندما يعلن شعب ما استعداده للموت في سبيل قضيته فما من سلاح يستطيع التغلّب عليه – اللهم إلا القتل الجماعي. وعندما قادت زعيمةُ الحقوق المدنية الأميركية أميليا بوينتون مسيرة السابع من آذار/مارس ١٩٦٥ إلى عاصمة ولاية ألاباما ليكتسب الأميركيون السود الحقّ في الاقتراع، وضعت حياتها وحياة رفقائها على المحك. وهاجمهم خيالة الشرطة وكلابهم الشرّيرة بوحشية في ما سيُعرف بيوم الأحد الدامي الشهير. لكنهم فازوا بحقّ الاقتراع.

تقدّم المجازر التي ارتُكبت ضد المتظاهرين في ساحة تيان إن माين في ١٩٨٩ مثالاً إضافياً على هذا المبدأ. فقد مرّت الدبابات على أجساد المواطنين العُزّل، ولا توجد أرقام موثوق بها، إلا أنه يُقدّر سقوط ما بين ٤٠٠ و ٨٠٠ قتيل. غير أن مثل هذا القمع لم ينجح في الحالة العربية. ففي مصر بلغ عدد القتلى أكثر من ٨٠٠ – ومع ذلك لم يتوقّفوا. ولم يتحدد بعد عدد القتلى في ليبيا. وعلى ما قاله أحد الشبان العرب: «لا يمكنهم أن يقتلونا كلّنا».

أدت هذه العملية إلى ولادة «العرب الجدد»، وهم أناس من مشارب الحياة كلها ومن الطبقات الاجتماعية والديانات كافة، تُوحّد ما بينهم حماسة الثورة للمجيء بنظام جديد للحكم يلتزم الديمقراطية والحقوق المتساوية لجميع المواطنين أمام القانون. ووثّقت المقابلات التلفزيونية مع الشبّان أنهم اتخذوا لأنفسهم هُوِيّةً سياسية وخلقية وتاريخية جديدة. وقال أحدهم للسي.أن.أن. وغيرها من المحطات الفضائية: «عشت لعقود بالخوف والريبة وها أنا أدرك الآن، وقد ولّى ذلك كله، أنني كائن بشري لي كرامتي وحقوقي». وأحد أكثر الشعارات دويّاً، وقد سُمع في ١١ شباط/ فبراير لدى مغادرة مبارك، هو «ارفع رأسك، أنت مصري!» وعلى ما أمكن لكل من يشاهد التلفزة أن يلاحظ، فقد كانت رؤوسهم جميعهم مرفوعة. وصاح غيرهم: «حرّية! حضارة!»

هذا هو التغيير الحقيقي الذي حصل، وليس طرد الديكتاتور المكروه في ذاته

- بالرغم من كون ذلك شرطاً مسبقاً - إنه التحوّل في نظرة شعب بأسره، وخصوصاً الشباب الذين كانوا محبطين ومستكينين.

يمكن لكل مَن زار القاهرة مِثلي على مدى الأعوام العشرة الماضية أن يتذكّر صور الإحباط واليأس. فأمام كل متجر أو مبنى عام في القاهرة يجلس عجوز بقفطانه البالي يرتشف الشاي ويجني جُنيهيه المصريين في اليوم لقاء «حراسته» المبنى. ويقدّم له الشاي فتى مصري صغير افترض به ارتياد المدرسة لكنه يكسب بدلاً من ذلك أجراً بائساً لعمله نادلاً على الرصيف. ويقف أمام المصارف والفنادق وغير ذلك من المباني الكبرى جنود ورجال شرطة بسياراتهم الرسمية. ويحافظ رجال الشرطة والجيش في كل مكان، سواء أمام مبنى التلفزيون الرسمي أو مقرّ الجامعة العربية، على حضور بارز جداً للعيان وأحياناً مثير للخوف. وغالباً ما يفرط موظفو الفندق في المجاملة ويتودّدون للنزلاء أملاً منهم بإكرامية سخيّة. وينقضّ بائعو الشوارع، مثل أبناء البازار، على الزائرين الأجانب كالعقبان وفي نيتهم انتزاع أي صيد ممكن فيما تتقاتل القططة الهزيلة على فتات الطعام الذي يقع عن طاولات السياح.

رحّبت مثل هذه المشاهد الكئيبة بزائر تونس. صُدمت وأنا هناك في ١٩٩٤ بعدد رجال الشرطة والأمن عند زاوية كل مجمّع؛ ويبدو أن أعدادهم تفوق أعداد المقاهي في أي مدينة إيطالية. وهذه المبالغة في عدد العناصر المنتشرين مسؤولة عن المستوى المستهجن في مدى تخويف السكان. وتعوّدت وحدات الأمن الحاضرة أبداً أن تتنصت إلى صديقة زرتها يومئذ، وهي صحافية وناشطة في مجال حقوق الإنسان، أو تسجّل مكالماتها، واضطُرّت إلى ردّ سقف سيارتها المتحرّك وإغلاق نوافذها قبل أن تسرّ إليّ بمدى القمع الذي تمارسه الدولة البوليسية.

نجح مواطنو الدول العربية الرئيسية، من خلال تعبئتهم الجماهيرية ضد مثل هذا الحكم القمعي، في تخليص أنفسهم من هذه الديكتاتوريات التي عفا عليها الزمن. ولم تشكّل الثورة المصرية حدثاً سياسيّاً وحسب، بل شكّلت أيضاً نقطة تحوّل خلقية. والقول نفسه ينطبق على التطورات التونسية وعلى الفورات في اليمن وليبيا. وتكشّف، حتى في بنغازي حصن المعارضة الليبية، تحوّل اجتماعي ملحوظ مع توحّد المواطنين في جهد لمساندة قواتهم الموجودة على الجبهة. وخرق

متطوعون في بنغازي المحرّمات الاجتماعية السابقة التي تقضي بعمل النساء والرجال بعضهم في موازاة بعض ولكن ليس بعضهم مع بعض، إذ كشف أعضاء من الجنسين عن سواعدهم وعملوا جنباً إلى جنب. ومارست النساء دوراً ريادياً في تنظيم حصص الطعام التي ينقلها الرجال إلى المقاتلين في الجبهات؛ وتقدّم شبان من النساء المتطوعات عارضين خدمات قريباتهن. وبالرغم من أن القذّافي نادى بالمساواة الاجتماعية بين الجنسين، فإنها المرة الأولى التي يختبرها الرجال والنساء في ليبيا. وكذلك في اليمن، المجتمع التقليدي جدّاً، برزت النساء بوصفهن نصيرات للحركة.

الشبان يتحدّون النظام الهرِم الفاسد

ذلك هو الجانب الصحّي من العملية.

في الوقت الذي أخذ محاربو الحرّية في العالم أجمع يصفّقون للثورة العربية، أخذت الأنظمة المُستهدَفة تقاتل من أجل مجرّد بقائها. وتمسّك بن علي أولاً، ومن بعده مبارك وصالح والقذّافي، بعناد بالسلطة ورفضوا مواجهة واقع أن العالم بأجمعه قد قام بشطبهم. وازدروا على نحو قاطع الدعوات الموجّهة إليهم للاستقالة من أجل مصلحة شعبهم وأمتهم.

لدى الشخصيات القيادية التي تطعن فيها الانتفاضات الشعبية أكثر من قاسم مشترك واحد. فقد تولوا (أو سلالاتهم) السلطة لعقود من الزمن (أربعة منهم لأكثر من ثلاثين عاماً)، وأنشأوا أنظمة ديكتاتورية قمعية تستند إلى القوات الخاصة وشرطة وزارة الداخلية وأجهزة الاستخبارات. ولجأوا في حكمهم إلى قوانين الطوارئ التي سمحت لهم بخنق أي أثر ضئيل للمعارضة ورموا بشخصيات المعارضة في السجن حيث تنتظرهم غرف التعذيب، ونظّموا في شكل دوري تمثيليات «انتخاب» راوح الاقتراع فيها لمصلحة النخبة الحاكمة ما بين ٩٥ بالمئة و٩٨ بالمئة – وهي نتيجة كانت لتصيب الديكتاتور الألماني الشرقي السابق إريتش هونيكر بالحسد. واستخدموا، باحتكارهم السلطة، وزنهم السياسي لجمع ثروات شخصية كبيرة من

خلال الفساد والاستيلاء على المساعدات الخارجية والحصول على أسهم في المؤسسات الاقتصادية التي تملكها الدولة، وما سوى ذلك. وقد أودعوا ما حازوه من ثروات تُقدّر بالمليارات حسابات مختلفة في مصارف خارجية (من حسن الحظ الآن أن الدول المضيفة قد جمّدتها).

وبالرغم من عقود من حكم الدولة البوليسية لم تفقد شعوبهم كرامتها، ولما حانت الفرصة تحرّكوا. شكّل ذلك تحوّلاً على مستوى الأجيال. فالشبان الذين تصل أعمارهم إلى ٢٥ أو ٣٠ سنة، ولم يعرفوا طوال حياتهم شيئاً غير الوضع القائم – أي الرؤساء الأبديين – عرفوا مع ذلك أن ما يختبرونه في الحياة اليومية ليس بالظاهرة الكونية. فقد زار الكثيرون منهم أوروبا أو تابعوا دراساتهم فيها، وفي الحالة المعاكسة فإنهم وصلوا من خلال الإنترنت إلى الأخبار المتعلقة بالعالم الخارجي. وهذا الجيل من الشباب هو الذي قاد الثورة ضد النظام الهرم العتيق. إنها ثورة قام بها شبان أصحّاء ذوو توجّه مستقبلي ضد نظام ديكتاتوري يعاني سكرات الموت.

وما للتباين أن يكون أكثر دراميّة: فقد أخذ من جهة آلاف، ومن ثم عشرات الآلاف، ومن بعدهم، نعم، الملايين من المواطنين في التدفّق إلى قلب تونس أو القاهرة وصنعاء مطالبين، سلميّاً، بحقوقهم ليس بوصفهم مواطنين بلد محدد فحسب، بل أيضاً ككائنات بشرية تتمتع بحقوق غير قابلة للتصرّف، مواطنون يحتضنون عناصر القوات المسلحة الذين اتخذوا القرار الخلقي الصحيح وانضمّوا إلى المتظاهرين. وبثّ تلفزيون الجزيرة وغيره صور شبّان يمتلئون فخراً ويحملون أطفالهم وقد أتوا بهم إلى الساحات المركزية ليشاركوهم في ما يدركون أنها أحداث تاريخية. وقد صوّرت الشابات اللواتي يضعن أوشحة الرأس وهنّ على المقعد الخلفي للدرّاجات ووجوههن تشعّ أملاً وقد رفعن أيديهن علامة النصر.

وهناك، من جهة أخرى، الوجوه الحجرية لأصحاب السلطة الهرمين، بن علي ومبارك أو صالح، أو القذّافي المحملق العينين استيحاشاً، وهم في حالة نكران سريرية للواقع الذي واجهتهم شعوبهم به، وقد حاولوا في البداية تهدئة الجماهير بوعود «إصلاحية» بائسة، ثم هددوا بالعواقب الرهيبة إذا تواصلت الاحتجاجات،

حتى ولو بلغ الأمر درجة الحرب الأهلية، وأخذوا أخيراً على أنفسهم عهداً بالتمسّك بمواقعهم المفلسة حتى النهاية المرّة. وموقفهم هو: «من بعدي الطوفان»، وكانت الرسالة، في الحالة القصوى للقذافي، أنه في حال إقصائه عن السلطة سيُنزل بشعبه أكبر قدر من الضرر ويأخذ معه إلى القبر أكبر عدد ممكن منهم. وقد التزم القذافي فعلاً كلامه وأطلق قوةً جامحةً من عقالها ضد شعبه في نزاع تطوّر إلى حرب أهلية دامية أوقعت عشرات الألوف من الضحايا.

بيد أن النهاية المرّة جاءت عاجلاً بالنسبة إلى بعضهم وآجلاً بالنسبة إلى بعضهم الآخر.

وهكذا تكشّفت في الانتفاضات ديناميتان اجتماعيتان ـ نفسيتان هما على طرفي نقيض ولكنهما متعاضدتان: كلّما مارس الزعماء حكمهم الاستبدادي بإعطاء الأوامر للقوى الأمنية بفتح النار على المتظاهرين تعبّأ المحتجون وتزايد عددهم بمرور الأيام. وكلّما نظّم المتمردون مقاومتهم تصلّب الحكام وهدّدوا بقمع متزايد، وهكذا كلّما وسّعت المعارضة قاعدة دعمها. وستصعّد الزعامة السياسية، ردّاً على ذلك، من عنفها مؤكّدةً بعناد شرعيتها وسلطتها. وستفقد في سياق ذلك كل شرعيتها وفي النهاية كل سلطتها.

شكّل موقف الجيش العنصر الحاسم في حالتي تونس ومصر. فقد أظهر المتظاهرون نضجاً سياسيّاً غريباً بدعوتهم الجيش إلى الانضمام إليهم وحمايتهم من الهجمات المسلّحة التي تشنّها عليهم قوات الشرطة الخاصة التابعة للنظام. فليس في وسع هؤلاء العسكر، بوصفهم من العناصر المجندين، إطاعة الأوامر بقتل إخوتهم ناهيك أنهم لا يريدون ذلك. ومنذ وقت طويل بدا أن القذّافي، أدرك هذا المبدأ، فحلّ جيشه النظامي واعتمد على القوات الخاصة إضافة إلى المرتزقة لدعم ديكتاتوريته.كذلك فإن مجرّد الأرقام في تونس ومصر هي التي قلبت الدفّة. فبغضّ النظر عن الأعداد التي يمكن للنظام أن يجمعها، وبغضّ النظر عن عدد القتلة الذين يمكنه نشرهم، فسيصل الأمر إلى حد يفوق فيه المتظاهرون بالفعل القوات الحكومية عدداً.

وفشلت محاولات مراكز القوى المحاصَرة كافة في تأكيد على سلطتها السياسية فشلاً ذريعاً، وفقدت كل مصداقية لها في عيون الشعب والعالم.

أما كيف سيردّ باقي العالم فسيكون له تأثيره، وهو ليس دوماً تأثيراً بالمعنى الإيجابي. فقد أثبت الدعم الذي قدّمه الغرب للمعارضة في تونس ومصر بأنه حاسم، خصوصاً وأنه تم من خلال قنوات سرّية – الاتصالات بين الجيش الأميركي والضباط المصريين على سبيل المثال. وعلى العكس من ذلك، شكّل تدخّل حلف شمال الأطلسي في ليبيا، الذي سهّله قرار مشكوك في شرعيته صادر عن مجلس الأمن الدولي، عملاً عدوانياً عسكرياً جعل من القانون الدولي مدعاةً للسخرية وفاقم من الحرب الأهلية في البلاد وأدى إلى وقوع إصابات هائلة في صفوف المدنيين.

ليست الثورة أبداً بالأمر البسيط أو الأفقي، بل إنها تجنح إلى أن تكون عملية في منتهى الفوضى. ولا يمكن لنا أن نتوقّع بالتفصيل ما سيصبح عليه النظام الجديد. ويتعلّق تمكّن القوى المنتصرة، أو عدم تمكنها، من إثبات شرعيتها الخاصة وكسب ثقة الشعب الكاملة على المدى الذي ستستبدل معه الأنظمة المنازعة والفاسدة بمؤسسات ديمقراطية قابلة للحياة. وستشكّل، بالتالي، المعاملة التي سيلقاها الديكتاتوريون المخلوعون اختباراً للشرعية الخلقية والسياسية والقضائية للزعماء الجدد. وإذا لم تلبِّ المحاكمات في تونس ضد بنِ علي وأعوانه هذه المقاييس، فإن الإجراءات القضائية في حقّ مبارك وأمثاله تشكّل امتحاناً لحكم السلطات العسكرية الموقّت. وفضلاً عن ذلك، سينعكس المصير الذي ينتظر القادة المخلوعين على جدوى تلك القوى التي طالبت برحيلهم وعلى شرعيتها. وستمثّل المهمة الإضافية التي تواجه الزعامة في البلدان المعنية في تحقيق الوحدة الوطنية التي تتطلب منهجية العمل من خلال الماضي الأليم بحثاً عن الحقيقة والمصالحة الوطنية.

السياسة وعلم الأمراض

على المرء، لكي يفهم سلوك القادة السياسيين العرب الذين يواجهون تحدّيات مطالب التغيير الاجتماعي والسياسي، أن يشرع في فحص سريري نفسي لاضطرابات

الشخصية الموجودة. وليس مبارك والقذافي وأمثالهما شخصيات غامضة وحسب، بل تشكّل أيضاً «أنواعاً» من شأن أدب التحليل النفسي المعني الإضاءة عليها[1]. ونحن، في حالة زعماء مختلف البلدان العربية التي تجتاحها الثورة، نتعامل مع اضطرابات متعددة في الشخصية: من النرجسية إلى جنون العظمة.

أُجريت، منذ أعمال سيغموند فرويد الرائدة، وفرة من الدراسات المهمة المنشورة التي تدرس الأوجه المختلفة لهذه المسألة المعقّدة. وقد وثّق المحللون النفسيون تجربتهم السريرية في حالات النرجسية وجنون العظمة والهستيريا والمرض العقلي – واستقصى بعض الباحثين على نحو مباشر ظهور مثل هذه الاضطرابات النفسية في مجال الحياة السياسية. ويسعى حقل البحث هذا، الذي يُعرف بـ «الدراسات النفسية ـ التاريخية» و«التحليل النفسي التطبيقي»، إلى تطبيق مفهوم هيكليات السمات المرضية على حالات شخصيات محدّدة في الزعامة السياسية[2].

وأنوي هنا استخدام نتائج مثل هذه الدراسات، ولا سيما المقاربة التحليلية التي تتبناها، لتفحّص سلوك عدد من رؤساء الدول العربية في خلال العملية الثورية. وترتكز هذه الدراسة على وقائع الأحداث وتركّز على الأفعال والخطابات والتصريحات المعلنة للاعبين مع تكشّف الأحداث الدرامية. وتشكّل خلفية كل من الشخصيات السياسية، وما يتعلّق خصوصاً بتاريخ عائلاتهم وما اختبروه في طفولتهم وما تلقوه من تعليم وتدريب وهم كبار، أهميةً قصوى في فهم نشأة علم الأمراض في السلطة.

غير أننا لا نتعامل مع شخصيات غامضة وتاريخها الخاص وسيرتها المهنية فحسب. بل هي جميعاً في قالب ثقافي شهد على تأثير القوى الخارجية للواقع. وأقلّ ما يُقال هو أن العرب لم يمرّوا بزمن سهل. فالوحدة العربية التي تم السعي إليها أكثر ما يكون شكّلت سراباً لسبب أساسي هو تصميم القوى الكبرى على سحقها.

سعى العرب إلى الاستقلال بعد أربعة قرون من الحكم العثماني، غير أن القوى

---

(١) راجع فهرست المراجع.

(٢) من الشخصيات التاريخية التي تمت دراستها من وجهة النظر هذه عدد من الأباطرة الرومان، وخصوصاً كاليغولا ونيرون، إضافة إلى نابليون وموسوليني وستالين وسواهم.

الأوروبية تلاعبت بهم وقد تذرّعت بدعم تمرّدهم. ووقّعت بريطانيا وفرنسا اتفاقيةً سرّية، هي اتفاقية سايكس ـ بيكو لتقاسم الأرض الغنية بالنفط. وبالرغم من أن الروس فضحوا هذه المؤامرة فإن نظام ما بعد الحرب العالمية الأولى شكّل انعكاساً لهذا المخطط. وقد اعتنت تلك القوى الأوروبية بانتقاء معظم قادة الدول العربية التي تمّ ترسيمها على الخريطة لتؤدي دور الدول الحاكمة بأمر غيرها. وحتى عندما ثارت الحركات القومية، بقيادة رجال أصبحوا أبطالاً وطنيين، للتخلص من نير الاستعمار فإن القادة الجدد سارعوا إلى اعتماد آليات للسيطرة من القمة إلى القاعدة على شعوبهم وأوطانهم.

حظي هؤلاء القادة في معظم الأحيان، وهذا هو المفيد، بدعم القوى الغربية. وأدى الإيطاليون دوراً أساسيّاً في انقلاب القذّافي في ١٩٦٩، وكذلك في استيلاء بن علي على السلطة في ١٩٨٧. وبالرغم من أن عبد الناصر لا يدخل ضمن هذه الفئة، فإن خليفته السادات أصبح حليفاً حاسماً للولايات المتحدة من خلال سلام كامب ديفيد مع إسرائيل واعتمدت مصر منذ ذلك الوقت على المال والدعم الأميركيين، كما تمتّع اليمن بالمساندة الخارجية في حربه على الإرهاب.

وفّرت الانتفاضات العربية في ٢٠١٠-٢٠١١ الحافز لهذه الدراسة الراهنة، لكن التحاليل والاستنتاجات ليست محدودةً بهذه التجارب. وهناك إشارة موجزة إلى حالتين من النرجسية السياسية في السياسة الأميركية المعاصرة مطروحتين على شاكلة حاشية: فهناك جورج و. بوش الذي تفضح سنوات حكمه الثماني علامات لا تمحى على اضطراب حاد في الشخصية. فالرئيس الأميركي، كما وثّقت ذلك بالتفصيل دراسة سريرية للدكتور جاستن فرانك(١)، شخص مضطرب عاطفياً لم يُفترض قطّ السماح له بتبوّؤ ذلك المنصب الرفيع في الولايات المتحدة. واستند الدكتور فرانك، الطبيب النفسي وأستاذ علم النفس في جامعة جورج واشنطن، في عمله إلى تحليل متخصّص للتصريحات العامة لبوش وقد نظر إليها من خلال صدمة تجربته الطفولية.

---

(١) Justin Frank, Bush on the Couch: Inside the Mind of the President, Regan Books, New York, NY, 2004.

تظهر أعراض نفسية مماثلة في حالات بعض الطوائف السياسية الأميركية وعبادات الشخصية التي تتخفى وراء قناع التنظيمات السياسية، إضافةً إلى ظاهرة «حفلة الشاي» Tea Party الجديدة نسبيّاً وتشكّل زعيمتها سارة بالين حالة سريرية جديرة بالدراسة.

الفصل الأول

نرجس على العرش

علينا، لتقدير سلوك زعماء الدول الأربع قيد البحث هنا – تونس، مصر، اليمن، وليبيا ـ، أن ندرسهم من وجهة النظر السريرية. وقد يضع المحللون السياسيون في مراكز الأبحاث، وكبار المراسلين الخارجيين، والمتخصّصون في مجال الاستخبارات على مستوى العالم، لمستهم الخاصة حول أسباب انتظار الرئيس مبارك ذلك الوقت كلّه بعد التظاهرات الكبرى التي ابتلعت بلاده قبل أن يجرؤ على التحدّث إلى الأمة، أو لماذا اختار الرئيس التونسي زين العابدين بن علي التحدّث إلى مواطنيه باللهجة المحلّية بدلاً من العربية الفصحى. وسيقولون أن مبارك مارس لعبة الانتظار، محاولاً، إذا صح القول، شراء الوقت؛ وأن بن علي تبنى لغة الشعب لردم الهوة بين الرئاسة والناس. ولم يفلح الأمر في الحالتين. غير أن تلك ليست هي المسألة.

مثل هذه التفسيرات ساذجة في أفضل الحالات.إذ علينا، لفهم أسباب السلوك الشاذ والشائن أحياناً لهؤلاء القادة المحاصَرين، التخلّي عن الكليشيهات المألوفة والمريحة لعالم الصحافة، والتنقيب في مجال علم النفس السريري، أو، لمزيد من الدقة، في عالم التحليل النفسي التطبيقي. ولا تهم ماهية الاعتبارات السياسية الفورية التي قد يبدو أنها تدفع إلى حركة الزعيم عند أي محطة من المحطات على طول الطريق، لأن العوامل النفسية المتجذّرة تجذّراً عميقاً هي التي تستطيع أن تشرح في شكل أكبر وأتم كلمات هؤلاء الأشخاص وأفعالهم.

ونحن، في معظم الحالات التي نعالجها هنا، إنما نعالج ما يسمّيه أدب التحليل النفسي «الشخصية النرجسية». والنرجسية، كما حلّلها أوّلاً سيغموند فرويد، ليست مظهراً مَرَضيّاً يصيب مختلف أنواع الشخصيات وحسب، بل يتكرر وجوده أيضاً لدى الشخصيات السياسية، وخصوصاً أولئك الذين يرتقون إلى مراتب السلطة[١]. فالنرجسية والسلطة، كما سنكتشف، ترتبطان ارتباطاً وثيقاً؛ إذ تسعى الشخصية النرجسية، من جهة، إلى بلوغ السلطة لإشباع حاجتها المَرَضيّة إلى الإعجاب والاعتراف والحب، ومن جهة أخرى يمكن الشخص «العادي» الذي يتوصّل إلى احتلال مركز سلطة أن ينزع بنتيجة ذلك إلى تنمية صفات نرجسية بوصفها تعبيراً شبه «طبيعي» عن وظيفته السياسية.

من أين يأتي هذا التعبير؟ يروي التقليد اليوناني القديم أسطورة نرجس، الشاب ابن السادسة عشرة، الذي أخذ جماله الاستثنائي بمجامع قلوب الشبان الآخرين وحتى بمجامع قلبه. وكانت إيكو (الصدى) الحورية واحدة من بين كثيرات وقعن في حبّ الشاب الوسيم. وردّدت، على ما يوحي به اسمها، صدى كلام الأخريات لكنها لم تتمكن من التحدّث نيابة عن نفسها. وحاولت مرّة تقديم حبّها لنرجس، لكنه رفضها من باب الكبرياء، وتحوّلت في النهاية إلى حجر. وفي إحدى المرات، وفيما نرجس يصطاد، بحث عن ماء ليروي عطشه، وبلغ أحد الينابيع. وعندما ركع ونظر إلى الماء رأى انعكاس صورته فوقع في حبّها. وحاول عبثاً تقبيل الماء ليدرك أن تلك مرآة لصورته. ومات نرجس، بعدما تلوّع من هذا الحب المستحيل، ونبتت زهرة تحمل اسمه في المكان الذي هلك فيه[٢].

وبغضّ النظر عن التنوعات الكثيرة في تفاصيل الأسطورة، فإن جوهر النرجسية هو حب الذات الذي يستتبع عدداً من الصفات. فالنرجسي يُفرط عادةً في المبالغة في تقدير نفسه وقدراته، أي «ذاته العظيمة»[٣]، ويطلب الإعجاب من الآخرين الذين يطمئنونه إلى عظمته.

---

(١) Freud, Sigmund, "Zur Einführung des Narzissmus," *in Gesammelte Werke*, Zehnter Band, Werke aus den Jahren 1913-1917, Imago Publishing Co., Ltd., Lopndon, 1949, pp. 137-170.

(٢) Spaas, Lieve (ed.), *Echoes of Narcissus*, Berghahn Books, New York, Oxford, 2000, pp. 1-2.

(٣) Kohut, H., The Analysis of Self: A Systematic Approach to the Psychoanalytic Treatment of Narcissistic Personality Disorders, International Universities Press, Inc., New York, 1971, passim.

يصف أوتو ف. كرنبرغ الشخصية النرجسية بأنها «تتميّز بـ 'تمجيد الذات' المبالغ فيه على نحو استثنائي إلى درجة تضمينها مكوّنات الآخرين المثالية». ويسمح «تمجيد الذات» هذا للشخص بتأكيد الشعور بالاكتفاء الذاتي وبالاستقلال. وقد يفسح هذا «الكم المبالغ فيه من العظمة والأنانية» في المجال أمام الشعوربعقدة النقص في حالة الاعتراض على هذه الصورة. وفي العموم فإن «الذات العظيمة المرَضية – وهي التعبير عن تمجيد الذات الشاذ – تظهر من خلال الاستعرائية (exhibitionism) وعقلية الاستحقاق والبطش، ... والميل المزمن إلى الحطّ من الآخرين، والسلوك الاستغلالي والتطفلي...». وعلى النرجسي أن يكون محطّ الاهتمام ليستمتع بإعجاب جميع المشاهدين[١].

ويتطلّب الأمر، في حالة الزعماء السياسيين، أن يحيطوا أنفسهم «بالرجال الذين يوافقونهم دائماً في الرأي»، وبالمتزلّفين والمتملّقين الذين يؤكدون لهم من دون نهاية أنهم دوماً على حق. ويحتاجون إلى الشعور بأنهم محبوبون ويُخشى منهم، ولا يحتملون أي انتقاد. ويتوجّب الأمر كذلك تجنّب الأشخاص الذين يُظهرون أي حكم مستقل على الأمور. وكل من يجرؤ على انتقاد الزعيم النرجسي أو يُشكّك في سلطته يصبح عُرضةً للضغط الاجتماعي الهائل. ففي الدينامية النفسية للجماعة يلتحق «الفريق الداخلي» المؤلف من المؤيدين المتعطّشين بالزعيم ويحميه من أيّ من المنتقدين الذين يُعرفون باسم «الفريق الخارجي»[٢].

تفسّر مثل هذه النظرة النفسية الثاقبة سبب إصرار الزعماء النرجسيين على السيطرة الكاملة على الرأي العام، من خلال وسائل الاتصال الجماهيرية بنوع خاص. وليست الرقابة على الصحافة منتشرة انتشاراً واسعاً وحسب، بل إن الصحافيين قد يخاطرون

---

(١) Kernberg, Otto F., "Sanctioned Social Violence," in *International Journal* of Pschoanalysis 84 (2003), pp. 683-698, cited by Wirth, Hans-Jürgen, Narcissism and Power: Psychoanalysis of Mental Disorders in Politics, Translation by Ingrid Lansford, *Narzissmus und Macht, ZurPsycho-analyseseelischerStörungen in der Politik*, Psychosozial-Verlag, Giessen, 2002, 2009, p. 64. See also Kernberg, Aggression in Personality and Perversions, Yale University Press, New Haven and London, 1992.

(٢) المصدر السابق ص ٦٦-٦٧، ٨٩ - ١٤٧.

بحياتهم إذا انتقدوا الزعيم أو سياساته. والشرط الأساسي للنظام الديكتاتوري الذي يقع ضمن هذا النموذج النفسي هو في وجود قوة شرطة صلبة عديمة الرحمة جنباً إلى جنب مع جهاز أمن داخلي قادر على رصد سلوك المواطنين، ومع الكثير من منشآت السجون المجهزة بغرف التعذيب.

يجب على الناس ليس مهابة الحاكم وحسب، بل عليهم أيضاً أن يبجّلوه. وهو يبني لهذه الغاية عبادة الشخصية ويغذّيها. وتلعب الصور العامة للزعيم دوراً حاسماً في فرض الشعور بتفوّقه المفترض. فكم من العواصم في الأنظمة الديكتاتورية تصطف في جاداتها صور أكبر من الحجم الحقيقي للزعيم أو تماثيل فرعونية وفق الأسلوب الستاليني الجديد الخالي من الذوق؟ وتوجد من بين الزخارف الأخرى عقارات فخمة بوصفها مقارّ إقامة رئاسية، وفيلّات ضخمة يلجأ إليها في الأعياد، ومواكب سيارة تمتدّ بطول كيلومتر واحد في العاصمة كلّما ظهر الزعيم، ومناسبات عامة متكرّرة احتفاء بالزعيم وبإنجازاته، وهي مناسبات يُحشد فيها آلاف المؤيدين الهاتفين. ويتم في مثل هذه المناسبات نشر قوات أمن ظاهرة وضخمة إيحاءً بمستوى ما يتم الشعور به من تهديد.

يتوقّع الزعيمُ النرجسي معاملةً خاصة في الأوقات كافة، ويتأكّد من حصوله عليها. والعقيد القذافي، على سبيل المثال، يطالب دوماً في زيارته الخارجية بأن يُنزله مضيفوه مع حاشيته الكبيرة في خيمة ضخمة في جوار الفندق الفخم الذي ينزل فيه رؤساء الدول الآخرون.

ولا يبالغ النرجسي بقدراته الذاتية وحسب، بل يميل أيضاً إلى الاعتقاد بأنه إله. وأشار المحلل النفسي هانز-يورغان ويرث إلى الامبراطور الروماني كاليغولا في تحليله «لهذا المتوهّم بأنه إلهيّ، وحاكم على الحياة والموت. لكن مشكلة الحاكم الذي يمتلك كل سلطة على الأرض هي في أنه لا يستطيع تفادي إدراك حدود سلطته، أي حدود هشاشة حياته وضعفها». فكلنا في النهاية بشر هالكون. ويتابع ويرث أنه «كلما استسلم الحاكم المصاب بجنون العظمة لتوهمه بأنه أشبه بإله عزل نفسه عن أقرانه وعن الواقع. ويقود هذا من جديد إلى هوس المخاوف العِظامية (المتعلّقة بجنون العظمة) Paranoid fears والاضطهاد، فيردّ عليها بمزيد

آخر من توهّمات العظمة النرجسية». وقد يبحث، عندما ينفصل بالتالي عن الواقع، عن الحماية في «عدائيته المزمنة وبرودته وتطاوله وتهكّمه وازدرائه العام للجنس البشري»[١]. وهو لا يمتلك إلا أن يزدري الآخرين ويتحدّث عنهم بعبارات مسيئة ومهينة. ويمكن لهذه العدائية أن تمتد إلى ما يسمّيه كوهوت «الغضب النرجسي المزمن» الذي يولّد أعمال الثأر[٢]. ويرتكب الديكتاتوريون النرجسيون، في مثل حالة الغضب هذه، الفظاعات على نطاق شامل حتى – مثل إصدار الأوامر للوحدات الأمنية بفتح النار بالذخيرة الحية على المتظاهرين المسالمين.

وسيسعى النرجسي دوماً، حتى في خارج الحلبة العامة، أي في العلاقات الشخصية، إلى احتلال وسط المسرح للإشادة بعظمته أملاً منه في إثارة إعجاب الآخرين[٣]. وهو يغار كثيراً من الآخرين ويخشى دوماً أن يسرق شخص آخر منه الأضواء. وهو استغلالي في علاقاته الاجتماعية بالبشر الآخرين ويعامل الناس على أنهم مجرّد أدوات لسلطته وما إن يؤدوا الغرض منهم حتى يطرحهم مثل المناديل الورقية المستعملة. وهو لا يظهر أي مقدرة مهما كانت على التعاطف سواء في حالة شخص آخر أو شعوب بأسرها.

يبلغُ جنون عظمته حدوداً قصوى، وينظرُ إلى كل واحد غيره بوصفه عدوّاً محتملاً وتهديداً. ويطلق كرنبرغ على تناذر (syndrome) الزعيم الذي يجمع مثل هذه النرجسية وجنون العظمة، اسم «النرجسية الخبيثة» التي غالباً ما تظهر لدى الديكتاتوريين. وكتب أن «ما يحدد هذا التناذر هو مزيج من (١) اضطراب نرجسي في الشخصية، (٢) وسلوك معاد للمجتمع، (٣) وعدائية مقبولة من الذات (ego-syntonic) أو ساديّة حيال الآخرين...، و(٤) وتوجه جنون عظمة قويّ». ويحتاج، بسبب جنون العظمة هذا إلى أن يحيط نفسه بمن يوافقونه دوماً في الرأي، أي بتابعين يعربون عن المحبة

(١) المصدر السابق ص. ٣٤، ٤٠.

(٢) Kohut, “Thoughts on Narcissism and Narcissistic Rage,” in Psychoanalytic Study of the Child, 27, pp. 365, cited in Wirth, Op. cit., p. 40.

(٣) Wirth, Ibid., pp. 62-63.

والإعجاب بروح من الولاء الذي لا يرقى إليه الشك[1]. وهو يفكّر دوماً في ثنائية الأسود والأبيض فيقسم العالم إلى أعداء (محتملين) وأصدقاء مخلصين؛ ويرسم، بالطريقة القاطعة نفسها، خطّاً متزمّتاً بين الخير والشرّ. ويبرّر، إذا شعر بأن عدوّاً ما خطير في شكل خاص ويهدد بقاءه بالذات، إطلاق العنان للقوة الساحقة ضده ويستحصل على لذّة ساديّة من أكثر الأفعال شناعةً وبربرية.

يوجد، من بين الزعماء المتنوعين من ذوي الشخصيات النرجسية، ذلك الذي يطلب إلى تابعيه الطاعة الكاملة لأوامره[2]. وسيصرّ هذا النوع على إدارة أدق التفاصيل رافضاً تفويض السلطة بسبب عدم الثقة، وقد يثور غضباً إذا اتُّخذ أي قرار على أي مستوى من دون موافقته الصريحة.

يحتاج الحاكم النرجسي دوماً إلى الاسترضاء من خلال التملّق والإعجاب والدعم الاقتصادي/الاجتماعي العام، وهو بالتالي عاجز تماماً عن النظر في إمكان أن ينقلب «شعبه» عليه. ويُعميه إعجابه بنفسه عن العوامل الاجتماعية في العالم الحقيقي، ويستمرّ في تغذية توهمه بأن شعبه يحبّه. وهذه كانت حال الديكتاتور الروماني تشاوشيسكو والزعيم الألماني الشرقي الشيوعي هونيكر[3]. أو فلنتذكّر إصرار القذّافي المتعنت في مقابلة أجرتها معه في ٢٨ شباط/فبراير كريستيان أمنبور على «إي.بي.سي» على القول: «شعبي كله يحبني. وسيموتون في سبيل حمايتي».

الهستيريا والاعتلال الاجتماعي

تتشابه هذه الصفة مع «الشخصية الهستيرية»، وهي اضطراب نفسي درسه في

(١) Kernberg, Otto F., *Aggression in Personality Disorders and Perversions*, Yale University Press, New Haven and London, 1992, p. 67; Wirth, Ibid., pp. 145-147.

(٢) Kernberg, Otto F., Ideologie, Konflikt und Führung: Psychoanalyse von Gruppenprozessen und Persönlichkeitsstruktur, J.G. Cotta'sche Buchhandlung Nachfolger GmbH, Stuttgart, 2000, Translation by Elisabeth Vorspohl, (Ideology, Conflict, and Leadership in Groups and Organizations, Yale University Press, New Haven, 1998, p. 171.

(٣) Wirth, Op. cit., (p. 67)

العمق المحلل النفسي فريتز ريمان[1]. ويتفق عدد من رؤساء الدول العربية المخلوعين مع بنية الشخصية التي تخشى أو تنبذ كل ما له نكهة القطعية والحتمية والضرورة – باختصار كل ما من شأنه أن يحد من توهّم المرء بأنه كليّ القدرة. وسيكافح كل من يعاني الهستيريا السريرية لدرء كل العمليات الطبيعية مثل عملية التقدّم في السن. ويتطلب التغلّب على عملية التقدم في السن، أو أقله علاماتها الظاهرة، الخضوع لعملية تجميل أو صبغ الشعر كما في حالة كلّ من القذّافي ومبارك وبن علي.

في مواجهة وقائع حياتنا النهائية والحتمية هذه، وهي بالتأكيد التقدّم في السن والموت، لن تحاول الشخصية الهستيرية «الإبقاء على وهم الشباب الدائم حيّاً» وحسب، بل أيضاً المحافظة على «صورة المستقبل الزاخر بالإمكانات لهم»[2]. ويلقي هذا، في حالة السياسيين العرب الذين هم قيد البحث، الضوء على إصرار كل منهم على البقاء رئيساً مدى الحياة فيعيد صوغ الدستور لجعل ذلك ممكناً. ويبدو الأمر وكأنهم يتمسّكون باعتقاد خرافي بأنهم ما داموا في السلطة فلن يتمكن حتى الموت من إزاحتهم.

عندما تتعرّض الشخصيات الهستيرية للهجوم تحاول قلب الطاولة على مهاجميها، وغالباً ما تلجأ إلى نظريات المؤامرة. وهكذا، مع نزول المتظاهرين بأعداد كبيرة إلى الشارع ضد «الريّس» المصري، اتفق هو ووسائل إعلام الدولة على فكرة أنهم من مثيري الاضطرابات الخارجيين، الأجانب، الإرهابيين وما إلى ذلك ممن يعملون على بثّ الفُرقة. وحذا القذّافي هذا الحذو بادعائه أن القاعدة وزّعت حبوباً مخدّرة على الشبان الليبيين وأطلقت العنان لهم ضد سيّدهم الكريم. وأكّد علي عبدالله صالح وجود مركز قيادة في تل أبيب ينظّم التظاهرات في صنعاء وأن القيادة الإسرائيلية

---

(١) Riemann, Fritz, *Grundformen der Angst: Eine tiefenpsychologische Studie*, Ernst Reinhardt Verlag, München, Basel, 1961, 2006. يميّز علماء النفس بين بنيات الشخصية النرجسية أو الهستيرية والتناذرات النرجسية أو الهستيرية في مختلف بنيات الشخصية.

(٢) المصدر السابق، ص. ٢٢٥.

تتلقى الأوامر من واشنطن. وكتب ريمان أنه عندما يدرك المرء عيوبه وذنبه تصبح عندئذ «صورة العدو ملائمة بنوع خاص فيتولّد الانطباع بأنه يجب الكشف عن صور العدو من أجل تبرئة الشعور بالذنب»[١]، والذنب يتعلّق في هذه الحال بإصدار المرء الأمر باستخدام العنف ضد شعبه.

تشبه هذه الصفة حاجة النرجسي إلى التعريف بصورة العدو الذي يمكن التعريف به بوصفه مصدر التهديدات. وستسعى الشخصية الهستيرية، على غرار النرجسي، إلى شكل من أشكال الدفاع من خلال تمجيد الذات لتبرز وكأنها «الكمان الرئيسي» في الفرقة الموسيقية.وتزداد هذه النزعة ما إن يتضح انعدام الأمان بين هُوية المرء الحقيقية وهويته المزعومة[٢]. وتجلّى ذلك في البيانات العامة للحكّام المحاصَرين الذين عظّموا من مآثرهم الماضية ومن دورهم «كأب للأمة» أو كأبطال عسكريين حصدوا الأوسمة. وكتب ريمان أن العقلية الهستيرية «لا تنظر كثيراً إلى الموقف والرتبة بوصفهما واجباً ... بل كفرصة لتعزيز المجد الشخصي، وهو ما يعطي مثل هذه الجاذبية للأوسمة والألقاب»[٣].

تؤدي اضطرابات الشخصية، والنرجسية خصوصاً، دوراً بارزاً عندما يتعلّق الأمر بالعلاقات الشخصية الوثيقة.وإذا وجد النرجسي شريكاً يعجبه فلن يرتبط بهذا الشخص بوصفه كائناً محبوباً، أي بوصفه شخصاً مستقلاً، بل الأحرى بوصفه يعكس صورة الأنا خاصته كما لو أنه امتداد لنفسه؛ ويتحوّل تمجيد الذات بالتالي إلى تمجيد متبادل. وعندما تلتقي الشخصيات النرجسية معاً في شراكة، ـ كمثل حالة سلوبودان ميلوسوفيتش وزوجته ميلا، (أو زين العابدين بن علي وزوجته ليلى طرابلسي) – يتحوّل الأمر في الغالب إلى «حصن زوجيّ» يعاد فيه «توجيه البواعث العدائية المتبادلة إلى أناس آخرين ومجموعات ووجهات نظر عالمية. ويبقى الحصن الزوجي مستقرّاً بالرغم من ارتفاع احتمالات النزاع لأنه يُنظر إلى كل ما هو شرّ على أنه

(١) المصدر السابق، ص. ٢٢٢.
(٢) المصدر السابق، ص. ١٩٦.
(٣) المصدر السابق، ص. ٢٢٥.

موجود في الخارج فقط وتتم محاربته هناك». وتكون المرأة الشريكة، في حالات كثيرة، هي النرجسية الكبرى وينتهي بها المآل وهي تدير الأمور[1].

لا يولد المرء نرجسيّاً بل يصبح كذلك أساساً نتيجة نوعية التربية العائلية والمعايير الثقافية الأوسع. فالطفل الذي عاش علاقة غير صحّية مع الأم والأب، حيث عمل أيّ من الأهل على كسر إرادته أو، على العكس، سيطر هو على أهله، قد يصبح مُعرّضاً لمشكلات نفسية خطيرة[2]. وسيرغب الطفل، في أي من الحالتين، في السلطة من أجل السلطة تعويضاً عمّا يعتبره ظلماً. وتكون صدمات سنوات الطفولة الأولى حاسمةً كما في حالة سلوبودان ميلوسوفيتش، الشخصية التي تم تمحيصها على نحو واسع في الدراسات النفسية ـ التاريخية. فقد اضطُرّ الطفل، بعد انتحار والده، إلى تأدية دور الشخص البالغ الذي يُتوقّع منه أن يعوّض والدته عن خسارتها. ثم انتحرت والدته، وهي إنسانة متصلّفة جداً ومتعصّبة سياسيّاً، وكذلك فعل عمّه. ويؤدّي مثل هذه الأحداث المأسوية بالشخص إلى حالة من السادو مازوخيّة إذا لم يتم تجاوزها بالحداد العميق والعمل على التخلّص منها علاجيّاً.

يميل الأطفال الذين اختبروا مثل هذه الصدمات إلى أن «ينعزلوا» أو يصبحوا أشبه «بفرخ البط القبيح» مفتقرين إلى الكثيرين من أصدقاء الدراسة.وتجتذب السياسة بعضاً منهم في سنّ مبكرة ويسعون، للتعامل مع الشعور بالوحدة والافتقار إلى الحب، إلى إرضاء ذواتهم باعتبار أنفسهم زعماء محتملين. وقد تعوّد القذّافي الوقوف على مقعد وترداد خطابات عبد الناصر لنيل إعجاب رفاق صفّه. وغالباً ما يُطوّر مثل هؤلاء الأولاد القدرة على رواية قصص المغامرات الجامحة كوسيلة لإضفاء الأهمية على أنفسهم وللحفاظ على هذه المقدرة عند البلوغ. ويشتهر معظم النرجسيين بالكذب. وقد ينقلب أولاد آخرون إلى نرجسيين كوسيلة للتعويض عما يشعرون به حقاً من عقدة نقص ناتجة من إعاقة مادية أو روحية. وقد يكفي التحدّر من أصول متواضعة ليقود الولد إلى البحث عن مكانة خاصة في المجتمع، كوسيلة

(١) المصدر السابق، ص ٣٣٨، ٣٤١.

(٢) Wirth, Op. cit. pp. 81, 92.

للتعويض عن حالة الفقر. ومن الأمثلة الشهيرة على النرجسية الناتجة من إعاقة جسدية مشكلة نابليون العصابية مع قامته القصيرة.

الزعيم والجماهير

إذا أُصيب زعيمٌ سياسي، لسببٍ أو لآخر، بشكل أو بآخر من اضطراب الشخصية الحاد فإن هذا لا يجيب عن السؤال التالي: لماذا تصل جماهير الناس إلى حدّ عبادته بدلاً من الاكتفاء بقبوله؟ وكان فرويد أول من استطلع دينامية نفسية الجماهير والعلاقة بين الجماهير والزعيم. ويختصر ويرث المفهوم كالآتي:

«يتم، في الجمهرة النفسية، التماهي المشترك لجميع أفرادها كل مع الآخر ومع زعيمهم الذي يُسقطون عليه جماعيّاً مثاليات الأنا العليا والأنا. ويحرّر إسقاط مثاليات الأنا والأنا العليا أفراد الجمهرة مما يحاصرهم من قواعد وقيم ومشاعر ذنب فيتمكنون من العمل بحسب دوافعهم الغريزية التي لا تُقاوم، وضغينتهم الناتجة من النزاعات اللاواعية، وحوافزهم العدوانية التي لا تعيقها ملامة الذات. وباسم الزعيم، يستعدّ الحشد ومعه أيضاً الأفراد الذين يشكّلونه – إلى درجة أنهم اندمجوا في الحركة الجماهيرية وتخلّوا بالتالي عن منزلتهم الذهنية بوصفهم أفراداً مستقلين – للاسترسال طوعاً في ممارسة أفعال تحرّكها الانفعالات مثل الهجمات والدمار وأعمال العنف التي كانوا ليرفضوا، فرديّاً، المشاركة فيها في الظروف الطبيعية»(١).

شدّد المؤرّخ سيد هوسيك على أهمية الصدمة الجماعية في صوغ رغبة المجموعة، أو حتى الشعب بأسره، في قبول مثل هذه الشخصية من دون قيد أو شرط. ففي حالة صربيا شكّل انتصار العثمانيين على الصرب في ١٣٨٩ في معركة سهل كوسوفو صدمة جماعية. ولم تعالج الأجيال المتعاقبة الصدمة بل حوّلتها إلى أسطورة مفادها أنه أمكن «إنقاذ» المسيحية من مزيد من الاحتلالات، بالرغم من خسارة المعركة.

---

(١) Ibid., p. 48, Freud, „Massenpsychologie und Ich-Analyse," in *Gesammelte Werke,* Op. Cit., Dreizehter Band, 1947, pp. 71-161.

وأصبح الحدث، الذي يُحتفى به في الأدب والموسيقى الوطنيين، نقطة مرجعية للنزعة السادو مازوخية: توصّل الشعب إلى الاعتقاد – وقد استغل ميلوسوفيتش الأسطورة إلى أقصى الحدود – بأن من حقه، وقد عانى الهزيمة، أن يسود من خلال الانتقام. ولبعض الأحداث التاريخية في التجربة العربية، من الحملات الصليبية إلى الجور العثماني، ومن الإخضاع الاستعماري إلى خسارة الحروب – وخصوصاً حرب ١٩٦٧ – إمكان مماثل لصوغ ثقافة الانتقام، وللخضوع للزعيم الديكتاتوري الذي يُعتقد أنه قادر على انتزاعه.

وحتى لو ترعرع الفرد في منزل وثقافة صحّيين، وأصبح زعيماً سياسيّاً ذكيّاً وصاحب ضمير وناضجاً وخلوقاً – يعتقد كرنبرغ أن امتلاك هذه الصفات من متطلبات الزعامة – يبقى لممارسة السلطة نفسها مفعول إنتاج النرجسية(١). فالسلطة تُفسد، كما يقول. وكتب ماريو إردهايم: «حتى ولو مُنع النرجسيون من بلوغ السلطة بعد إخضاعهم لاختبار ذكي، فستظهر تلك العلامات، عاجلاً أو آجلاً، عند غيرهم من الأشخاص الذين يبلغون السلطة» لسبب بسيط هو أن «السلطة نفسها [...] تتسبب بالنرجسية المفرطة». وهكذا، وكما يلخّص إردهايم اللغز، فإن:

«معضلة الحكم هي أنها تضع، من جهة، أسس تعزيز النمو البشري من خلال سيطرة فضلى على الطبيعة، ولكنها، من جهة أخرى، تعيق في الوقت نفسه الاكتساب الاجتماعي لهذه الشروط الأساسية من خلال إطلاق العنان للنرجسية، وبالتالي تعجيل تدمير ثقافة النمو التي سبق له أن ساهم فيها»(٢).

السؤال المطروح الذي على القارئ أن يحاول الإجابة عنه في هذه الدراسة، هو: هل هؤلاء الزعماء أشخاص أصيبوا باضطراب في الشخصية بسبب صدمات الطفولة أو غيرها من التأثيرات العائلية والاجتماعية؟ أم هم في الأساس أشخاص أصحّاء تعرّضوا للإفساد في سياق عملية توليهم المناصب القيادية؟

(١) Kernberg, 1998, 2000, p. 63.

(٢) Erdheim, M., Die gesellschaftliche Produktion von Unbewusstheit. Eine Einführung in den ethno-psychoanalytischen Prozess, Suhrkamp, Frankfurt, 1982, pp. 410-411, cited by Wirth, Op. cit.,p. 197.



الفصل الثاني

مُعمّر القذّافي – ملك الملوك

عندما تدفّق مئات الآلاف من الليبيين، في أحد أيام أواسط شباط/فبراير، إلى ساحات المدن للتظاهر والهتاف بسقوط العقيد القذّافي، عقد الزعيم الليبي اجتماعاً استغرق أربع ساعات مع أحد زملائه العرب كرّس عشرين دقيقة منه لإثارة ما اتضح له في ذلك الوقت أنه قضية ملحّة: أين يمكنه أن يجد جرّاح تجميل مؤهّلاً يقوم بشدّ وجهه؟ ويقسم روبرت فيسك، الصحافي الموثوق الذي نشر الخبر في مقالته في عدد صحيفة «الإندبندنت» الصادر في ٢٢ شباط/فبراير، أن «الرواية صحيحة». وما من سبب يدفع إلى التدقيق في صدقية التقرير، إذ إنه يشكّل في الواقع مثالاً ملائماً على نحو خاص على اضطراب الشخصية الذي يعانيه القذّافي.

ولا يكشف الديكتاتور الليبي عن هذا العارض وغيره من عوارض شخصيته النرجسية وحسب، بل إنه يشكّل ربّما المثال الدراسي الأكمل على علم الأمراض في الحقل العام. ويظهر القذّافي بالحرف الواحد كل تَناذُر (syndrome) يحدّده المحللون النفسيون على أنه مرتبط بالنرجسية والهستيريا وجنون العظمة. والمختصر هو أن الرجل مصاب بمرض عقلي خطير، وهذه حقيقة تكفي لتبرير مغادرته السلطة السياسية.

قبل وقت طويل على اندلاع الانتفاضة الليبية، التي بدأت في الأساس كعملية

احتجاج سلمية حوّلها النظام إلى حرب أهلية، أدركت شخصيات سياسية بارزة في العالم السمات العصابية، ناهيك بالذهانية، لدى الزعيم الليبي. وبدا لعبد الناصر، وهو بطل القذّافي ومثاله الأعلى، على أنه «فتى لطيف ولكن ساذج إلى حدّ مذهل»[1]. وروى عبد الناصر قصة طريفة عن عشاء للرجل قُدم فيه طبق من الجمبري. لم يسبق للقذافي في حياته أن رأى الجمبري فسأل مرعوباً: «ما هذا؟ جراد؟ أتأكلون الجراد في مصر؟» فأكّد له عبد الناصر أنه ثمار بحر تدعى الجمبري، وهي لذيذة. لكن القذافي رفض رفضاً مطلقاً: «أنا لا آكل السمك لأنه لا يُذبح على الطريقة الاسلامية حيث يقول من يتولى عملية الذبح قبل أن يبدأ الذبح: الله أكبر. إن هذا الجمبري ميت. ولا يمكنني أن آكل الميتة»[2].

تُوفّي عبد الناصر بعد سنة فقط على استيلاء القذّافي على السلطة، لكن أتيحت لخليفته أنور السادات الفرصة الوافرة ليختبر ما هو أكثر من سذاجة الزعيم الليبي الشاب. وقال السادات في نيسان/أبريل ١٩٧٥ لصحافي من جريدة «السياسة» الكويتية، بعدما شرع القذّافي في نشر الافتراءات ضد رئيس الدولة المصرية، إن «القذافي مجنون مئة بالمئة. لقد سكنه شيطان ويتخيّل أموراً ليست صحيحة»[3]. وشاركته الزعامة السوفياتية في وجهة النظر هذه وذُكر أنها أخذت تستطلع السبل لاستبداله. ونقل تقرير «للسي.آي.إي». عن مسؤول عسكري رفيع المستوى في موسكو وصفه القذافي بأنه «مجنون يعتلي كومةً من الذهب»[4]، فيما أبلغ ديبلوماسي روسي أحد مساعدي عبد الناصر «بأنه [أي القذافي] مجنون»[5]. أما بالنسبة إلى رئيس التشاد حسين حبري، الذي حاول القذافي السيطرة على بلاده، فيتعلّق الأمر «بذلك الوباء المدعو القذافي..»[6]. ووصفه رونالد ريغان بـ «كلب الشرق الأوسط

(١) Blundy, David and Lycett, Andrew, Qaddafi and the Libyan Revolution, Little, Brown and Company, Boston, Toronto, 1987, p. 18.

(٢) Heikal, Mohamed, The Road to Ramadan, Collins, St James's Place, London, 1975, p. 186.

(٣) Sicker, Martin, The Making of A Pariah State: The Adventurist Politics of Muammar Qaddafi, Praeger, New York, Westport, Connecticut, London, 1987, p. 56.

(٤) المصدر السابق، ص. ١١٠.

(٥) Blundy, Op. cit., p. 70.

(٦) المصدر السابق، ص. ١٨٠.

المسعور» واعتبره الرئيس الألماني كريستن ولف حديثاً بأنه «مريض عقليّاً». ونشرت الأسبوعية الألمانية «دير شبيغل» مقالة خاصة عن حالة القذافي النفسية استندت فيها إلى دراسات أجراها البروفيسور جيرولد بوست، من جامعة جورج واشنطن، الذي عمل على مدى ٢١ عاماً في كتابة الملفات الشخصية في «السي.آي.إي».. والقذافي، بحسب بوست، «زعيم نرجسي من الدرجة الأولى ... تستحوذ عليه أحلام الشهرة...»[١].

لا يشكّل أي من هذه التوصيفات تشهيراً، فهي دقيقة وصحيحة. ولم يعد في وسع من شككوا في سلوك القذافي الجنوني أو استخفّوا به أن يُغمضوا أعينهم بعد تكشّف الأحداث في شباط/فبراير ٢٠١١. ولاحظ الصحافي الألماني والخبير في شؤون الشرق الأوسط أولريخكينزل في اجتماع في ذلك الشهر للجمعية الألمانية العربية في برلين، أنه «عندما مارس القذافي في نهاية المطاف «خدعة المظلة»، بات على المرء أن يدرك أن الرجل مجنون». وأشار بذلك إلى المشهد الذي بُثّ على تلفزيون الدولة في ٢٢ شباط/فبراير، ويظهر فيه الزعيم الليبي جالساً في سيارة أشبه بجيب «البابامو بايل» الذي يتنقل فيه البابا بنديكتوس السادس عشر، وقد فُتحت أمامه مظلة شاطئ عظيمة الحجم. وقال للصحافيين أنه أراد في الواقع النزول إلى قلب المدينة للتحدّث إلى المتظاهرين، لكنه بدّل رأيه بسبب هطل المطر.

تعظيم الذات النرجسية

يمتلك النرجسي، كما يشدّد على ذلك الأدب السريري، تقديراً مبالغاً فيه لخصاله وقدراته، وينزع إلى إعلان ذلك بصوت مرتفع. فبعدما أمر الرئيس ريغان بقصف مقرّ القذّافي في ١٩٨٦ ردّاً على الهجوم الإرهابي على نادي «لابيل» الليلي في برلين، حافظ الزعيم الليبي على الدمار الناتج من القصف كنصب تذكاري لحصانته وأمر بأن يُرفع في المكان تمثال معدني هائل الحجم يمثّل قبضة تسحق طائرة حربية أميركية من دون أي شفقة في تلميح إلى وقاحة القوة العظمى.

(١) Der Spiegel, “Reise in Gaddafis Hirn,” 14/2011, April 4, 2011, pp. 90-91.

وقد ألقى أولى خطبه التلفزيونية في سياق النزاع الأهلي الراهن أمام أطلال هذا المقرّ السابق، حيث قام، في ٢٢ شباط/فبراير بتقديس الحدث: «أخاطبكم من هذا المكان الصامد، هذا البيت في طرابلس الذي أغارت عليه ١٧٠ طائرة تقودها الدول النووية الكبرى، أميركا وبريطانيا والحلف الأطلسي... تخطّت كل القصور وكل المنازل... تبحث عن منزل معمر القذافي. هل لأن معمر القذافي رئيس جمهورية؟ لو كان رئيساً لعاملوه مثلما عاملوا رؤساء الدول الأخرى، ولكن لأن معمر القذافي تاريخ مقاومة، تحرّر، مجد، ثورة. وهذا اعتراف من أكبر دول العالم بأن معمر القذّافي ليس رئيساً يمكن أن نقتله بالسّم أو نُطلق ضدّه تظاهرة تسقطه». وتوجّه ضمناً إلى المعارضة وقال على سبيل السؤال: «حين كانت القنابل، هنا في هذا المكان، تدكّ بيتي وتقتل أولادي، أين كنتم يا شذّاذ... يا جرذان؟ كنتم مع أميركا... ١٧٠ طائرة تخطّت الملوك وتخطّت الرؤساء وتخطّت الوطن العربي بأسره وجاءت إلى خيمة معمّر القذافي وبيت معمّر القذافي. هذا مجد لا تفرّط فيه ليبيا... ولا الأمة العربية ولا إفريقيا ولا أميركا اللاتينية، ولا سائر الشعوب التي تريد الحرّية والكرامة للإنسان وتقاوم الجبروت».

أُعلن أن «ليبيا تريد المجد». وتابع: « تريد ليبيا أن تحتل قمة العالم. أنا مقاتل، ثوريّ من الخيم. سأموت في النهاية شهيداً» بعد أن أقاتل «حتى آخر نقطة من دمي». وأمر مواطنيه الليبيين بالتعبئة: «أيها الرجال والنساء الذين تحبّون القذافي... اخرجوا من بيوتكم، واملأوا الشوارع. اتركوا بيوتكم وهاجموهم في أوكارهم. يأخذون أولادكم ويُسكرونهم ويرسلونهم إلى الموت. من أجل ماذا؟ لتدمير ليبيا، لحرق ليبيا».

وحثّ مؤيديه على أنه «دقّت ساعة العمل.. دقّت ساعة الزحف. دقّت ساعة الانتصار. لا رجوع... إلى الأمام!!!! إلى الأمام!!!!» وضرب الطاولة بقبضته بطريقة جنونية ووقف ثم غادر المكان.

وما من التباس مطلقاً في ذهن القذافي بالنسبة إلى نتيجة النزاع، لأن الغلبة له ولليبيا ولشعبه. وقال في ٢٥ شباط/فبراير لمؤيديه في الساحة الخضراء: «نستطيع سحق أي عدو. يمكننا سحقه بإرادة الشعب». وأظهر نزعة يتميّز بها الزعماء

المصابون بالنرجسية، وتحدّث عن قدرة شعبه على كسب انتصاراته التاريخية على الإيطاليين. وقال: «هؤلاء هم الشبان، أبناء وأحفاد شهداء المعارك ضد الغزو الإيطالي، الامبراطورية الإيطالية التي سحقها آباؤكم وأجدادكم».

وانطلق القذّافي في هذه الملاحظات في عملية من المديح وإطراء الذات وقال: «إذا لم يحبني الشعب الليبي فلا أستحقّ الحياة. إذا لم يحب الشعب العربي، والشعب الإفريقي، وسائر الشعوب معمّر القذافي، فلا يستحق معمّر القذافي العيش ولو ليوم واحد! إذا لم يحبني شعبي فلا أستحق الحياة ولو ليوم واحد». وانتهى بتوجيه نداء إلى أتباعه للاستعداد بروح عالٍ للمواجهة المقبلة وبمزاج احتفالي بالفعل: «عليكم أن ترقصوا وتغنّوا وتحضّروا أنفسكم.... ارقصوا، غنّوا، ابتهجوا!»

وستعاود المواضيع التي طُرحت في خطابه الظهور في عدة تصريحات وخطابات تالية. واحتوت الرسالة المركزية على القناعة النرجسية بأنه سينتصر في النزاع الدائر بالرغم من كل الصعاب، على غرار ما فعلت بلاده في وقت سابق من التاريخ. وتحدّث في ١٥ آذار/مارس في مجموعة مختارة من الأتباع في طرابلس معلناً أنه «مهما كانت المؤامرة علينا فسنواجهها. سندمّرهم. على الشعب الليبي أن يهبّ لقتال قوى الاستعمار. هزمناهم من قبل وسنهزمهم مرّة أخرى. سينتصر الشعب الليبي، ستنتصر الحرّية، وستنتصر الجماهيرية الليبية». (وكان نجله، سيف الإسلام، قاطعاً بالقدر نفسه في مقابلة مع الصحافة في ذلك اليوم عندما أعلن أن المعركة ستنتهي بعد ٤٨ ساعة). وعندئذ وقف الزعيم، وهو يرتدي رداءه الصحراوي البنّي المعهود وقبعته الصغيرة المستديرة، وهزّ قبضتيه المرفوعتين في الهواء قبل أن يذوب وسط الحشد.

ألقى القذّافي خطاباً في ١٧ آذار/مارس، بعد شنّ غارات جوية على بنغازي، ترجمته «الجزيرة» إلى الإنكليزية معلّقة بأنه ساوى نفسه فيه بالله، أو بالنبي، لجهة الوعد بمسامحة المتمردين، «الذين أُجبروا على السير في ركاب أولئك الكفار»، تماماً كما وعد النبي أحد الأتباع الذين ضلّوا، بأن الله قد سامحه. واعتقاد الشخصية النرجسية بأنها أشبه بإله هو اعتقاد نموذجي برز بتواتر متزايد في سلوك القذافي مع تصاعد النزاع.

التقى القذافي كذلك عدة مرات الصحافة الأجنبية في خلال المرحلة الأولى من النزاع، واستغلّ كل ظهور له بوصفه فرصة لعرض ذاته العظيمة كزعيم يحبه شعبه عموماً، ناهيك بجميع الناس. سوى أن هذا السلوك فضح حالته شبه الذهانية. ولمّا سأله أحد مراسلي الـ «بي.بي.سي» عن خططه حيال التمرّد، أجاب القذافي بضحكة هستيرية تعذّرت السيطرة عليها. كان منفصماً على نحو ظاهر وبدا أنه على وشك التوضيح. وسأل بكثير من الجدّية بعدما تمكن من استجماع نفسه: «ما هو السؤال؟» فأعاد مندوب الـ «بي.بي.سي» صوغه قائلاً إن تمرّداً يجري على قدم وساق فماذا ينوي، بوصفه قائداً، أن يفعل حيال ذلك؟ وجاء الجواب تمتمة طويلة وهمهمة حادة. ثم تحاشى المسألة تماماً وتوسّع حول احترامه للصحافة كمؤسسة في ما بدا واضحاً أنها محاولة للتلاعب بسائله. والشيء الملموس الوحيد الذي أمكنه قوله هو أن «القاعدة» هي التي تفتعل الاضطرابات.

الواقع يقرع الباب

ما الذي يحصل عندما يظهر فجأة على مسرح الأحداث السياسية ذلك الكيان الذي يخشاه جميع النرجسيين – أي الواقع؟ وهو الواقع الذي أكّد نفسه في ليبيا مع أولى تظاهرات المعارضة لكن القذافي اعترض سبيله نفسيّاً بانتحال ما يخدمه من مبررات حول مؤامرة تحوكها القوى الخارجية، وأفعال تمارسها «القاعدة».

ما إن صوّت مجلس الأمن الدولي في ١٧ آذار/مارس على منطقة الحظر الجوي فوق ليبيا وأكّد بأنه يسمح باتخاذ «كل الإجراءات الضرورية» لحماية المواطنين الليبيين من الهجمات العسكرية التي تشنّها القوات الحكومية، حتى وجد معمر القذافي نفسه في عالم جديد وإطار نفسي غير مألوف تماماً. وأصبح فجأة في مواجهة الواقع بالحرف العريض.

فماذا يسعه أن يفعل؟ قضى أحد الإمكانات المتوافرة بأن يذهب في رحلة، ليس إلى المنفى – فهذا أمر لا يمكن لمثل نفسه العظمى قبوله – بل إلى الموت. وهو الذي أكّد تكراراً استعداده للقتال حتى النهاية مفضّلاً أن يقضي شهيداً على الأرض الليبية على أي خيار آخر.

وقضى البديل الآخر بأن يعقد صفقة، وهو أمر يشكّل، من وجهة النظر الواقعية والسياسية، الخيار الأكثر عقلانية. وقد سرت شائعات بالفعل بأن الحكومات الأميركية والأوروبية تستطلع آراء الحكومات الإفريقية بحثاً عن بلد يمنحه حقّ اللجوء.

جاء ردّ القذافي في خطاب طويل ألقاه في ٢٩ نيسان/أبريل كرّر فيه تعهده المقاومة، بيد أنه أشار إلى استعداده للتفاوض بموجب بعض الشروط. وحملت ملاحظاته الافتتاحية مغزى سريريّاً، إذ قال لمحاوريه الدوليين في عملية خيالية لقلب الأدوار: «قدّمنا لكم كل الوسائل لإخراجكم من المأزق الذي أنتم فيه. وأنتم تواجهون شعباً مصرّاً على الموت». وقال: «الحرّية أو الموت». وسواء أدرك القذافي ذلك أم لم يدركه، فإنه أخذ في تقليد شعارات المعارضة التي كابدت حتى الآن عشرات الآلاف من القتلى ولم تُظهر أي إشارات للاستسلام. وتعنّت القذافي في موقفه: «لن نستسلم. لن نغادر. لن نذهب إلى المنفى».

بيد أن الواقع أثار صدمةً حتى في عقله المختل. إذ تخلّى عن توصيفه السابق لمجلس الأمن الذي أسماه «مجلس ميكي ماوس»، وقال إن على المجلس في هذه الحالة «أن يلتئم» بما أن أحد البلدان «عرضة للعدوان، وهناك حرب بين دولتين»، وإن انتداب مجلس الأمن للتدخل لكن ليس – حسبما أوضح – لتقرير الشؤون الداخلية لبلاده. وأعقب ذلك البيان الجدير بالملاحظة قول القذافي: «على أي حال إننا نواجه الواقع الآن. دعونا نفاوض. ما الذي تريدونه؟» وأعرب عن استعداده للتفاوض مع فرنسا وبريطانيا وإيطاليا والولايات المتحدة إضافة إلى حلف شمال الأطلسي والاتحاد الأوروبي.

لا بدّ أن التلفظ بمثل هذه الكلمات آلم القذافي، كما يؤكّد ذلك كونه غالباً ما يقرأ نصّاً جاهزاً عندما يتحدّث عن التفاوض، ويقلّب الأوراق بعصبية وهو يقرأ. وكرّس قدراً كبيراً من مدة خطابه للإعراب عن امتنانه لعشيرة أبو سليم التي قدمت له مقرّ اللجان الشعبية العامة بعدما دمّرت غارات حلف شمال الأطلسي الجوية مقرّه. وكان هنا يوجه دعوة غير مباشرة إلى القبائل الأخرى والمدن للانضمام إلى قواته في المقاومة.

وأنهى خطابه المضطرب باستشهادات من القرآن الكريم تؤكّد أنهم سيؤتون

النصر إذا عملوا معاً. واستشهد بالآية «سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ» (سورة القمر – الآية ٤٥). وأومأ القذافي بسبابته مطبّقاً هذا على الوضع المباشر قائلاً: «سيُهزم حلف شمال الأطلسي. وقريباً سيُهزم جمعهم ويولون الأدبار». وضرب الزعيم الطاولة بيديه الاثنتين بقوة ونهض ثم انصرف.

غاب الزعيم عن الأنظار مع تصعيد هجمات الأطلسي التي استهدفت مقاره وقيل أنها قتلت أفراداً من عائلته. وبخلاف تأكيده السابق، لم يواجه القذافي الواقع، بل سعى إلى الهروب منه.وتحدّثت تقارير غير مؤكّدة في أواسط أيار/مايو عن مبادرات إيطاليا للوصول إلى «خروج مُشرّف» للزعيم الليبي يقضي بنفيه إلى دولة صديقة، وعرض الرئيس الروسي ميدفيديف وساطته لاحقاً في اجتماع لدول مجموعة الثماني. كذلك جهّز الاتحاد الإفريقي مبادرةً للقذافي لوقف النار وربما المنفى، لكنها لم تأت بشيء. وذُكر في ٣١ أيار/مايو أن خمسة جنرالات وثلاثة ضباط كبار آخرين ظهروا في روما ودعوا رفقاءهم إلى الانضمام إليهم في المعارضة، وهو ما سبق لمئة وعشرين ضابطاً آخرين أن فعلوه. وأفادت تقارير من مصادر بريطانية في أواخر أيار/مايو أن جنون العظمة لديه بلغ مستويات عالية جداً دفعته إلى الاختباء في العاصمة مبدّلاً أمكنته باستمرار وغالباً ما يمضي لياليه في المستشفيات. لقد بلغ ملك الملوك نهاية المطاف.

أسماء الزعيم

تبنى القذافي، على مرّ السنين، عدداً من الألقاب التي تُوفّر نظرة سابقة إلى كيفية رؤيته لذاته العظيمة. بدأ مجرّد قائد للثورة، الأخ معمّر، ليتخذ لنفسه لاحقاً موقع «ملك ملوك (شمال) إفريقيا» و«عميد الملوك والرؤساء العرب»[1]. وانتحل لنفسه في ١٩٩١، في مواجهة حركة التكفير والهجرة، سلطة «إمام المسلمين معمّر القذافي» و«زعيم القيادة الشعبية الإسلامية العالمية» ليصدر فتوى تعلن كفر الجماعة.ودعا في خطب له في شباط/فبراير وتموز/يوليو ١٩٧٨، ومن دون أن ينتحل أية ألقاب جديدة، إلى إعادة النظر في السنة الهجرية وهي خطوة أثارت غضب علماء

(١) Intifada Palestine, February 23, 2011.

الدين السعوديين عليه[١]. وأمر في حزيران/يونيو ١٩٨٦، وقد مثّل هذه المرة دور الامبراطور، بتغيير أسماء أشهر السنة، ولم يثر هذا القرار أي نزاع ديني أو سياسي بما أن تنفيذه اقتصر على ليبيا[٢]. والمفارقة أن القذّافي أعلن خلال الثورة أنه لا يحمل أية ألقاب على الإطلاق، وهو في الواقع لا يستطيع الاستقالة من منصبه بما أنه لا يتولى أي منصب. فالشعب، وليس هو، من يمسك بالسلطة[٣].

مثل هذه الألقاب الرسمية والمناصب الفخرية المزعومة هي بمنزلة إظهار لحب الذات المفرط. وإذا استحقّ القذّافي مثل هذا الحب من نفسه أوليس بالحري بالآخرين أن يعربوا عن مثل هذه العواطف؟ والقذافي مقتنع بأن هذه هي الحال. وتحدّث عبر شاشة التلفزيون في إثر غارة ١٩٨٦ الجوية فزعم أن شعب الولايات المتحدة يحبه في الواقع بالرغم من محاولات واشنطن القضاء عليه. وقال، إثباتاً لذلك، إن امرأة أميركية اتصلت به مسبقاً لتحذيره. وتباهى في مناسبة أخرى بأنه يتلقى الكثير من الرسائل من أميركيات معجبات بجماله. وقال شارحاً إنهن «غالباً ما يقلن أنهن يحببن شَعري»[٤].

ستسعى شخصية على هذه الدرجة من الاقتناع بمزاياها الاستثنائية جاهدة للتباهي بها في شكل من أشكال المجاهرة. والأكثر وضوحاً لدى القذافي هو لباسه المسرف، إذا لم يكن الصارخ، الذي يراوح بين الكثير من الألوان الصارخة. ويذكر زوّاره أنه غالباً ما يغيّر ملابسه عدة مرات في اليوم وهو شديد الشعور بالنفس في ما يتعلّق بتحديده للموضة[٥].

يطلب مثل هذا الشخص المغرور معاملةً خاصةً من الآخرين ويتيقن تمام التيقن من حصوله عليها. ويُصرّ القذافي، عند سفره إلى الخارج في زيارات رسمية، على الإقامة مع حاشيته الكبيرة في خيمته البدوية الهائلة الحجم، ويجلب معه ناقتين

(١) Mattes, Hanspeter, Qaddafi und die islamische Opposition in Libyan, Deutsches Orient-Institut, Hamburg, 1995, pp. 127, 17.

(٢) Blundy, Op. cit., p. 30.

(٣) Frankfurter AllgemeineZeitung, February 28, 2011.

(٤) Blundy, Op. cit., pp. 9, 24.

(٥) المصدر السابق، ص. ٢٤.

تُشحنان جوّاً خصوصاً لتزويده يوميّاً الحليب الطازج. (وسواء أكان الأمر مصادفة أم لا، فقد اشتهر عن الملك إدريس، الذي أطاحه القذافي في انقلاب ١٩٦٩، أنه كان يشرب دوماً حليب الناقة)[١]. وتضمّ حاشيته حارساته الشخصيات الشهيرات ويصل عددهن إلى الأربعين، ويُقال أنهن جميعهن عذارى[٢] إضافة إلى ممرضته الأوكرانية، غالينا كولوتنيزكا. وكانت له مرّة، استناداً إلى مصادر أخرى، ممرضة ومُدلّكة من يوغوسلافيا إضافة إلى امرأة ثالثة من ألمانيا الشرقية. وذُكر أن القذافي عمد في كل مرة يزور فيها صديقه العزيز سيلفيو برلوسكوني في روما إلى التأكد من وجود نحو مئة فتاة في متناول اليد تراوح أعمارهن بين ١٨ و٣٥ عاماً، وجميعهن بطول متر وسبعين وما فوق. وما إن تصل الفتيات حتى يشرع القذافي في المحاضرة عن القرآن الكريم[٣]. وهناك، في المقابل، عدد من التقارير يشير إلى ما هو أكثر بعض الشيء من علاقات أفلاطونية مع النساء تراوح بين المغازلة والتمهيدات الصريحة للجنس[٤].

معمّر، النرجسي الخبيث

يجمع القذافي، على غرار الديكتاتوريين الكثيرين غيره، بين سمات النرجسية وجنون العظمة المفرط. وفي هذه الحال تتطور، بحسب أدب التحليل النفسي، «النرجسية الخبيثة» وتتميّز بنمط التفكير في الأبيض والأسود ضمن فئات الصديق/العدو. فيُعامل الأعداء بالحدّ الأقصى من الازدراء ويتعرّضون للقمع الوحشي الذي يصل حتى إلى درجة الإلغاء المادي.

شكّلت مجموعات المعارضة كلّها، سواء الإخوان المسلمون أو جماعة التكفير

(١) المصدر السابق، ص ٤٨.

(٢) Intifada Palestine, February 28, 2011.

(٣) FAZ, February 27, 2001. استغل القذافي أيضاً في زياراته الخارجية كل فرصة لتسويق ذاته العظمى. وعندما زار تونس، وزّع "بقوة وبأقصى أسلوب الفن الهابط الذي يعشقه بضع ماسات وخصوصاً بعض القلائد الرائعة ذات الضوء الوامض التي تزينها صورته..." Beau, Nicolas et Catherine Graciet, La Regente de Carthage: Main basse sur la Tunisie, La Decouverte, Paris, 2009, p. 114.

(٤) Blundy, Op. cit., pp. 22-23.

والهجرة أو سواهما، بالنسبة إلى القذافي ركائز للعدو. وقال في خطاب له في ١٩٩١ : «نحن في جانب، بينما الإمبريالية وأميركا والصهيونية وأوروبا والدعوات إلى الهراء والهرطقة والقتلة ومرتكبو جرائم القتل ومستخدمو السكاكين والأناس الغوغاء موجودون كلّهم في الجانب الآخر». ولا يستحقّ مثل هذه الكائنات البائسة إلا كلمات الإساءة. «جميع هؤلاء الناس، أبناء الزنى هؤلاء الذين أحدثكم عنهم، أرسلهم أعداء الدين وأعداء الأمة العربية من الخارج لتخريب الدين...»[١].

ما إن اندلع التمرّد في ٢٠١١ في ليبيا حتى ألقى النظام بالملامة على جهاز الاستخبارات الإسرائيلية الموساد وعلى الولايات المتحدة واتهمهما بالتحريض. وأعلن القذافي في ٢٢ شباط/فبراير أن المشاركين في الانتفاضة «جرذان»، «جرذان المرض»،ومجموعة من الشبان الذين أعطتهم [القاعدة] حبوب الهلوسة»، شبّان «يقلدون ما يحصل في تونس». ووصف المعارضة، في كلامه في ١٥ آذار/مارس إلى مؤيديه، بأنها مؤلفة من «المارقين وقُطّاع الطرق»، ومن «الجرذان والخونة».

وتقضي عقليته، بالتالي، بأنه ليس من المبرر وحسب بل من الضروري أيضاً نشر القوة الغاشمة ضدهم. وتعهّد في خطاب ٢٢ شباط/فبراير نفسه بمعاقبة «كل ليبي يشهر السلاح» بالإعدام. وأشار على نحو صريح إلى مجزرة ساحة تيان إن مين حيث «كل من وقف في الأمام سحقته [الدبابات]. ومن مات، مات لأن وحدة الصين أغلى من المجموعة التي في هذا الميدان...». واستهدف القذافي بالتأكيد شعبه، وشنّ غارات جوية أدت إلى التدخل الدولي. وبعدما أصدر التهديد الجدّي بقصف بنغازي واجتياحها «وبعدم إظهار الرحمة»، مررت الأمم المتحدة قرار إعلان منطقة الحظر الجوي.

لم تعرف الوحشية السادية لهجومه على المعارضة أية حدود. وفتحت وحدات الأمن في ١٩ شباط/فبراير النار على موكب جنائزي مؤلف من مواطنين ليبيين تجمعوا لدفن الذين قتلتهم القوات الحكومية، وأدى ذلك إلى مجزرة.ووصلت في الرابع من آذار/مارس صور إلى الصحافة تُظهر ٢٠ رجلاً قتلتهم القوات الحكومية،

(١) Mattes, Op. cit., pp. 138-139.

وقد أوثقت أيديهم وراء ظهورهم وأعدموا على عجل لأنهم رفضوا القتال إلى جانب قوات القذافي. وفي اليوم نفسه، وهو يوم جمعة، «اختفى» ما يصل إلى مئة شاب قبل التظاهرة.

استشهد وزير الدفاع الأميركي روبرت غيتس بتقارير استخبارية تحدّثت عن «قيام القذافي بنقل جثث الأشخاص الذين قتلهم ووضعها في المواقع التي هاجمناها». وقد هدف من ذلك إلى دعم المزاعم الليبية بأن الغارات الجوية تقتل المدنيين. وأفادت مصادر المعارضة أن قوات القذافي ما إن تحتل مدينة ما حتى تنبش قبور المتمردين لإزالة أي دليل على القتل الجماعي.

فتحت دباباته، في الثاني من نيسان/أبريل، النار على المنازل والأماكن السكنية في مصراتة، وهي الموقع الذي تم التنازع عليه بشراسة. وذكرت الصحافة الألمانية في الأول من نيسان/أبريل أن جنود النظام الذين أسرتهم المعارضة قالوا إن القذافي أصدر قبل ذلك بأسبوعين أوامره بتدمير بنغازي، حصن المعارضة. وقال إنه لن يزور المدينة إلا إذا، ومتى، أمكنه من خارج أبوابها النظر عبر بقاياها ورؤية قرية الصيادين عند جانبها الشرقي، أي بعدما تكون المدينة كلّها سوّيت بالأرض.

شكّل الصحافيون الأجانب أهدافاً مفضّلة اعتقاداً من القذافي أن العدو (الولايات المتحدة وإسرائيل) كلّفهم نشر الأكاذيب حول الوضع. ونشر يورغن تودنهوفر، الشخصية السياسية الألمانية السابقة والصحافي، روايته كما عاشها عن قيام قوات القذافي بسحق آليته. فقد احترق صديقه ومرشده عبد اللطيف بعدما أصيبت الآلية بصاروخ أرض ـ أرض مزوّد ربما بالنابالم أو الفوسفور. ولساعات بعد ذلك، تعرّض ورفاقه، وقد غادروا الآلية في الوقت المناسب، لهجمات بالصواريخ والقنابل. وسبق لقائد المقاومة، مصطفى عبد الجليل، أن أبلغ تودنهوفر أن ما يُقدّر بـ ١٥ ألف شخص قتلوا في الأسبوع السابق.

أفادت «هيومان رايتس واتش» في ١٧ نيسان/أبريل أن القوات الحكومية الليبية تلقي قنابل عنقودية على مدينة مصراتة المحاصرة وقد أصابت المستشفى من بين أهداف أخرى، ودفعت بالسكان إلى الفرار مذعورين. وكرّرت وزيرة الخارجية الأميركية كلينتون التهمة نفسها بعد ذلك ببضعة أيام. وأمر القذافي، في أواخر أيار/

مايو، باستخدام قنابل مضادة للأشخاص وبزرع الألغام في ميناء مصراتة لمنع وصول المساعدات الإنسانية بحراً إلى المدينة المحاصرة.

وليست هذه المرة الأولى التي ينذر فيها النظام بالعدوان الغاشم ويمارسه ضد أبناء وطنه. ففي مطلع آب/أغسطس ١٩٩١، ألقى القذافي خطاباً أمام تلامذة الصف التاسع في إحدى المدارس الابتدائية. وحثّهم على تفادي الشرّ وصنع الخير، ليكشف بعد ذلك عن لائحة «من فشلوا»: الفلسطينيون الذين «فشلوا» في تحرير القدس؛ «والجيل الذي تحدّر منه العملاء، والكلاب الضالة، والمرتزقة، والفارون، وجميع الحثالة التي تأكل من فتات الأميركيين والإنكليز..». وتُشير عبارة «الكلاب الضالة» إلى عناصر المعارضة الليبية في الخارج، أولئك الذين، على مرّ العقود، طاردتهم فرق الموت الليبية وقتلتهم في شكل منهجي. ومضى القذافي يقول لمستمعيه اليافعين أنه ونظامه سيقتلان مثل هؤلاء المناوئين. وقال: «لقد عقدنا العزم على تصفية كل من يعاني هذا المرض [المعارضة] لأن هذا المرض معد؛ ومعنى ذلك أن هذا المرض يجنّد أياً منّا ويضعه في مصاف العدو. وإذا وجدتم من الآن فصاعداً أن أي شخص قبالتكم قد جنده العدو فعليكم بإعدامه على الفور أمام الناس. وهذا أمر تم القيام به في كل الحقب».

وانتهى القذافي إلى القول: «نحن مصمّمون على المضي في التصفية الجسدية لكل من ينضمّ إلى هذه الحركات لأن هذه الحركات تخرّب الإسلام والعروبة وتدمّر صفوفنا وتخدم العدو. [وصاح الحضور بشعارات: نحن مستعدون ومصمّمون على القتال؛ بإشارة منك، يا معمّر، سندمر الأسطول السادس»][1].

استمرّ على مرّ السنين قتل الأفراد إضافة إلى القتل على نطاق واسع. وفي ١٩٩٣، وفي إثر الانقلاب الفاشل الذي قامت به قبيلة ورفلة، توجه والد أحد المخططين للانقلاب إلى السلطات للسؤال عن الإطلاق الوشيك لابنه من السجن. ضربته قوات الأمن ضرباً مبرّحاً حتى مات متأثراً بجروحه. وسعوا لاحقاً إلى نبش رفاته ورميها في البحر[2]. وفي ١٩٩٦، وردّاً على تمرّد في أحد السجون أمر القذافي قواته بفتح النار

(١) المصدر السابق، ص. ١٤١ – ١٤٢.

(٢) FAZ, March 15, 2011.

فقُتل ١٢٠٠ سجين بدم بارد. ويمكن للائحة الأعمال المروعة التي ارتكبها القذافي أن تملأ أكثر من صفحات هذا الكتاب.

هذا بالنسبة إلى التعامل مع العدو على الأرض الليبية. أما بالنسبة إلى العدو الخارجي فقد موّل القذافي عمليّاً على مرّ العقود وجهّز ودعم سياسياً كل حركة إرهابية على الخريطة. وذكرت الاستخبارات الإسرائيلية في ١٩٨٦ أن القذافي قدّم الدعم اللوجستي والسياسي و/أو المالي لما يُقدّر بخمسين مجموعة إرهابية إضافة إلى الفلسطينيين الرافضين (الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة، أبو نضال، الجبهة الديمقراطية، الخ.)، والجيش السرّي الأرمني، والإيتا، والجيش الجمهوري الإيرلندي، وبادر ـ ماينهوف، والألوية الحمراء، ومنظمات تخريبية في أميركا اللاتينية وآسيا[١].

ويتحمّل عملاؤه المباشرون المسؤولية عن ضربات بارزة من تفجير مرقص «لا بيل» في برلين في ١٩٨٦، إلى اغتيال الشرطية البريطانية إيفون فلتشر في ١٩٨٤ في لندن بإطلاق قاتل مأجور النار عليها من السفارة الليبية، وتفجير الطائرة فوق لوكربي في ١٩٨٨ ما أدى إلى سقوط ٢٧٠ قتيلاً. وتحمّل القذافي في آب/أغسطس ٢٠٠٣ المسؤولية عن ذلك الهجوم (بالرغم من الكثير من الأسئلة التي استمرت تحيط به)، ودفع التعويضات إلى عائلات الضحايا، وحاز بالتالي إعادة انضمامه إلى «المجتمع الدولي». وأعطى القذافي، في الوقت نفسه تقريباً، تصريحاً مدوياً أعلن فيه أنه يتخلّى عن إنتاج أسلحة الدمار الشامل، بما في ذلك الأسلحة النووية – وهي أسلحة يُحتمل أنه لم يمتلكها!

أوهام العظمة

لم يغذّ القذافي وهمه الدائم بأنه يتمتع بالحصانة ضد هجمات الأعداء الكثر في الداخل وفي الخارج وحسب، بل أيضاً بأنه سيصبح في النهاية في موقع يحدّد فيه مسار الأحداث التاريخية. قضى منطقه بأنه، بوصفه القذافي وبما هو عليه،

(١) Blundy, Op. cit., pp. 150-151.

يملك الحق والسلطة في إصدار أوامر يجب أن تُنفّذ. وهذه حالة نموذجية لتوهّم النرجسي بأنه أشبه بإله، ومن حقه بالتالي تحديد من يجب أن يعيش ومن يجب أن يموت. ففي الذكرى الرابعة والعشرين لإنشاء دولة إسرائيل استأجرت مجموعة من اليهود الأميركيين السفينة «كوين إليزابيث الثانية» في رحلة إلى أشدود. فاستدعى القذافي قائد إحدى الغواصات المصرية وسأله عن إمكان تعيين السفينة. وجاء الرد إيجاباً فأمره القذافي بإطلاق طوربيدين على السفينة وإغراقها[١]. وذُكر أنه طلب في صيف ١٩٨٢ إلى سكرتير السفارة الليبية في لندن، عزيز الشارب، «أريد منك تدبير اغتيال الملك حسين». وقضت فكرته على ما يبدو باستهداف طائرة الملك الأردني بصاروخ أرض ـ جو[٢]. ووضع كذلك خططاً لاغتيال السفير الأميركي في القاهرة هرمان إيلتس. وبثّ راديو طرابلس في ١٩٨٣ نداء لاغتيال مبارك[٣]. ولم ينتج شيء من هذه التهديدات والمؤامرات، لكنها تصوّر حالته الذهنية تصويراً مناسباً.

يؤدي المال، في هذا السياق، دوراً خاصاً، لأن كلفة مثل هذه المآثر تتجه لأن تكون كبيرة. وغالباً ما يظنّ النرجسي أن المال يستطيع شراء كل شيء. وعرف القذافي من عبد الناصر أن إسرائيل تمتلك قدرةً نوويةً يفتقر إليها العرب، فقرر أن على ليبيا الحصول على مثل هذه المقدرة. وأوفد مساعده الرائد عبد السلام جَلّود إلى القاهرة ليبلغ الزعيم المصري اعتقاده بأن الصينيين قد يكونون مستعدين لبيع قنابل ذرّية. وأبلغ رئيس الوزراء الصيني شو إن لاي جلود أن بلاده لا تعمل في مجال تزويد الأسلحة الذرية، وانتهت المسألة عند هذا الحد[٤]. والافتراض بأن الصينيين مستعدون للقيام بصفقة بيع لتحقيق الربح يقف بالتأكيد وراء عرض شراء السلاح النووي. وعرض القذافي ثلاثة مليارات دولار على السودان ليقطع علاقاته بالولايات المتحدة، وتعهد بدفع خمسة مليارات دولار إلى مصر إذا مزّقت اتفاق كامب ديفيد[٥]. وكانت أموال النظام هي التي اشترت في ثورة ٢٠١١ المرتزقة الإفريقيين السود إضافة إلى الليبيين.

(١) Heikal, Op. cit., pp. 192-193.

(٢) Blundy, Op. cit., pp. 146-148.

(٣) Sicker, Op. cit., p. 60.

(٤) Heikal, Op. cit., pp. 76-77.

(٥) Sicker, pp. 65, 61.

وذُكر أن الزعيم الليبي دفع لأفراد عائلات من قُتلوا في النزاع نحو ١٤٥ ألف يورو ووضع جائزة بقيمة نصف مليون يورو ثمن رأس زعيم المعارضة[١].

لا شيء سوى الزُّور

تميل الشخصيات النرجسية إلى الكذب حتى منذ الطفولة الباكرة. ولا يخدم هذا تعظيم الذات وحسب، بل يعبّر أيضاً عن وهم التشبّه بالإله انطلاقاً من «أنني إذا قلت ذلك فهذا يعني أنه صحيح». وهكذا، عندما ووجه القذّافي بالتجميد الدولي لأرصدته في البنوك الأجنبية والمؤسسات، كذب، «لا مال لي في الخارج. وليس لديكم أثر لأي دليل»[٢]. وفي خلال التحضير للهجوم على بنغازي، أصدر جيش القذافي بياناً إلى أهل المدينة لجهة أنه في «مهمة إنسانية» لإنقاذ السكان من الإرهابيين. وأعلن موسى كوسى، وهو لا يزال وزيراً لخارجية القذافي، وقفاً للنار لأن لنظام القذافي «مصلحة كبرى في حماية المدنيين»[٣]. وأعلنت وكالة أنباء الجماهيرية الرسمية في الواقع أن الجيش سيوقف كل الأعمال العدائية فسحاً في المجال للمتمرّدين بتسليم أسلحتهم. وأعلن القذافي أن السبب في إرساله ابنه الساعدي إلى بنغازي كان «لتطبيق خطة عمل لتحسين البنى التحتية». وهدّد بعد ذلك بفترة قصيرة «بإخراج الخونة بالقوة من بنغازي» وبعدم إظهار أي رحمة. وكرّرت الحكومة عدة مرات في خلال الحرب الأهلية عرضها وقف النار، وفي كل مرّة من دون نتيجة.

سرد في سلسلة من المقابلات مع الصحافة الخارجية الكذبة تلو الأخرى في شأن الوضع. وزعم في مقابلة في ٢٧ شباط/فبراير مع محطة التلفزة الصربية «بينك تي.في».، ـ دبّرها صديق ميلوسوفيتش الحميم السابق زورا ليليتش– أن «البلاد تحت السيطرة، والمشكلة الوحيدة هي العصابات المسلحة التي تسيطر على القاعدة [قالها كذلك وإنما يقصد التي تسيطر عليها القاعدة]». وتابع مفصّلاً: «أولاً لا

(١) FAZ, March 5, 2011.
(٢) المصدر السابق، ١١ آذار/مارس ٢٠١١.
(٣) المصدر السابق، ١٩ آذار/مارس ٢٠١١.

توجد حوادث في الوقت الراهن، وليبيا هادئة تماماً. وما من شيء غير عادي، ولا أعمال شغب». وأعاد سرد القول نفسه في لقاء مع صحافيين من الـ»بي.بي.سي» و «آي.بي.سي» في أحد فنادق طرابلس.وعندما سألته كريستيان أمانبور عن الاحتجاجات، نفى كل شيء. وأعلن «لا تظاهرات في أي من الشوارع. لا. ما من أحد ضدنا. ضدي، ولأي سبب؟ أنا لست رئيساً. إنهم يحبونني، شعبي كله معي، جميعهم يحبونني. شعبي سيموت في سبيل حمايتي». ولمّا أصرّت عليه في موضوع الانتفاضة المتمركزة في بنغازي، زمجر قائلاً: «القاعدة، القاعدة، وليس شعبي». وقال في ١٥ آذار/مارس في مقابلة مع «أن-تي.في» إن التقارير التي تتحدث عن قيامه بقمع التظاهرات السلمية ليست إلا «أكاذيب». وقال أنه سقط « ١٥٠ إلى ٢٠٠ قتيل فقط، نصفهم من قوى الأمن. ماتوا لدى اقتحام مخافر الشرطة».

نوقشت مسألة كذب القذافي أيضاً في شأن مصير أفراد عائلته في الغارات الجوية الأميركية في ١٩٨٦. والرواية التي سمعتها الصحافة هي في أن ابنته بالتبني، هناء، قد هلكت. لكن لم يُشر قبل الحادثة إلى مثل هذه الفتاة المتبناة، واختلف العمر الذي أعطي لها بين ١٢ شهراً أو خمسة أعوام.

الولد سرّ أبيه ... والابنة كذلك

يحتل ابن القذافي، سيف الإسلام، على نحو منتظم محل والده في اللقاءات الصحافية، ويعرض السلوك المتغطرس نفسه والنزعة إلى الكذب. وقد تحدّث إلى «آي.بي.سي» في ٢٨ شباط/فبراير ليؤكد أن البلاد بأسرها «هادئة»، وأن الحكومة «لم تستخدم القوة»، وتحدى من يجري معه المقابلة قائلاً: «أرني قنبلة واحدة». وسئل عما سيحصل إذا غادر والده البلاد، فأعلن: «ستحصل حرب، حرب أهلية في ليبيا». وكذب في شأن أصول العائلة المجمّدة في الخارج قائلاً إن العائلة «متواضعة جدّاً» ولا تملك حسابات في مصارف خارجية. ونفى بسرور انشقاق أي قيادي ليبي. وفي مقابلة ثانية في ١٧ آذار/مارس مع المحطة الأميركية نفسها، وفي الوقت الذي كان يتم فيه التحضير لتحرّك الأمم المتحدة، نفى سيف الادعاءات بحصول غارات

جوية على المدنيين. وتساءل تساؤل العارف «هل شاهدنا إصابة مدنية واحدة؟ لا يوجد إذاً حمام دم في ليبيا».

ذُكر، وعلى عكس إصراره على أن والده سيعيش ويموت في ليبيا، أن سيف أوفد مبعوثاً إلى لندن في أوائل نيسان/أبريل لاستكشاف سيناريوهات محتملة يتولّى بموجبها السلطة تاركاً للقذافي دوراً رمزيّاً بحتاً. ونقلت «الشرق الأوسط» عن «مصادر» ليبية احتمال قبول مثل هذه التسوية، لكن سيف، ولدى سؤاله عن ذلك من «رويترز»، نبذ مثل هذه الفكرة بوصفها «سخيفة»، وشرع يتوسّع في خططه القيام بإصلاحات واسعة ووضع دستور جديد وإجراء انتخابات وما سوى ذلك. وفي مقابلات لاحقة مضى سيف مثل أسطوانة مكسورة. وتحدّث إلى الـ «واشنطن بوست» في ١٧ نيسان/أبريل ليقارن الإصابات المدنية التي حفّزت تحرّك الأمم المتحدة لفرض منطقة حظر جوي بأسلحة الدمار الشامل العراقية قبل الحرب الأخيرة. وأقسم، في حال إطلاق النار على أحد في طرابلس، بأن الأعداد ضئيلة. وخلص إلى القول: «واحد، اثنان، ثلاثة، عشرة أشخاص، ٢٠، ٣٠، ربما، ربما لا أحد يعرف، ربما عرضياً، لكن النية لم تكن، أوّلاً، موجودة. وتحدّث الناس، ثانية، عن المئات والآلاف. يوجد فارق كبير بين اثنين وثلاثة وبين ألفين وثلاثة آلاف». ولمّا سئل عن عواقب رحيل والده، أجاب هذه المرة: «الصومال، الجزء الثاني. يعرف الجميع ذلك».

وأثبتت شقيقة سيف، عائشة، من خلال ملاحظاتها العامة من طرابلس في أواسط نيسان/أبريل أنها مصنوعة من معدن أبيها وشقيقها نفسه. نددت بالدعوات إلى استقالة القذافي بوصفها تحدّيات استفزّت كل ليبي. وقالت إن والدها ليس موجوداً في ليبيا فقط بل إنه يعيش في قلب كل ليبي. إذاً: «كل من لا يريد القذافي لا يستحقّ أن يعيش». وفي تلك الأيام شرع المؤيدون في الهتاف: «الله، معمّر، وليبيا وبس».

من معمّر؟

على المرء، إذا أراد فهم ظاهرة القذافي، ألاّ يكتفي بتفسير أفعاله وخطاباته وما سوى ذلك، بل عليه أيضاً أن يتفحّص طفولته وسنواته الأولى. وهنا أيضاً نجد مثالاً يُدرّس عن العوامل التي ساهمت في تطوير الشخصية النرجسية.

وُلد ثوريّ المستقبل في أيلول/سبتمبر ١٩٤٢ في خيمة، وهو الأصغر بين أربع شقيقات. ولم يتوافر أطباء ولا ممرضون ولا قابلات قانونيات[١]. عاش أهله البدو في خيمة، محرومين من المنشآت الصحية أو الكهرباء، ويتنقّلون دوريّاً مع أفراد عائلتهم الواسعة ويبلغ عددهم الستين أو ما شابه من مكان إلى مكان مع مواشيهم بحثاً عن الماء والكلأ. ورعى رأس العائلة، محمد عبدالسلام بن حامد بن محمد، جماله وماعزه ونعاجه وخرافه. ولم تكن الحياة في الصحراء صعبة على ابن البدو وحسب، بل إن الأحداث السياسية في سنوات طفولته كانت مأسوية وصادمة كذلك. اندلعت معركة العلمين وهو لا يزال طفلاً، وهزمت في خلالها قوات المشير مونتغومري قوات الألماني رومل. ولم يمتلك البدو من خيار سوى الهروب من المعارك. لكنهم لم يتمكنوا من تجنيب أنفسهم ويلات الحرب واضطروا إلى السير عبر جثث القتلى والأشلاء التي أضحت جيفاً بنات آوى[٢].

أخبر القذافي نفسه ذكرياته الصادمة الماضية: «تعرّضنا لإطلاق النار وتفادينا الرصاص في أواسط الحرب العالمية الثانية، فيما البلدان تتقاتل فوق أرضنا ونحن لا نملك فكرة عن السبب. حلّقت الطائرات فوق أرضنا. وسقطت القنابل.

(١) يوجد بعض الالتباس المتعلق بتاريخ ميلاد القذافي. وبالرغم من أنه يحدده رسميّاً في ١٩٤٢، فإن بلوندي يشير إلى أنه عندما أراد دخول المدرسة في مصراتة وكان قد تجاوز حد الـ١٩ عاماً المسموح به استحصل على شهادة ميلاد مزوّرة. وربّما هذه الشهادة المزورة هي التي حدّدت تاريخ المولد في ١٩٤٢، وبالتالي فإنه ربما تجاوز عمر السنة الواحدة في أثناء تجربة الحرب ولو أنه كان لا يزال طفلاً حينئذ.

(٢) Gaddafi, Muammar with Edmond Jouve, My Vision, Conversations and Frank Exchanges of Views with Edmond Jouve, John Blake, London, 2005, pp. 9-10, Blundy, Op. cit., pp. 33-35.

وأخذت الألغام تتفجّر في كل مكان. لم نفقه سبب ذلك. تلك هي أولى ذكريات طفولتي»[١].

«بدا [معمّر] منذ نعومة أظفاره مختلفاً عن الأطفال الآخرين. كان جدّياً بل وحتى سَكوتاً...». و «نادراً ما لعب مع أنسبائه، بل كان يضيع في التفكير في أمر أو في آخر». ولاحظ والده أنه شديد الانطواء على النفس إلى درجة أن لا يرد إلا إذا ووجه مباشرة بسؤال. وقال أحد المدرسين إنه كان ذكيّاً وورعاً إلى درجة تكاد تبلغ التنسّك. وأخذت بمجامع قلبه وهو شاب القصص التي يرويها له والده أو معلّم القرآن عن الإنجازات الغابرة لقبيلته وشعبه. وتعلّقت القصة التي أراد أن يسمعها مراراً وتكراراً بقتال جدّه حتى الموت ضد الإيطاليين، وتجربة والده العسكرية ما بعد الحرب العالمية الأولى[٢]. أما بطل القذافي فهو عمر المختار قائد المقاومة الليبية ضد الإيطاليين الذي سقط في المعركة في ١٩٣١. أما معلّم القرآن، الذي استخدمه الوالد الأمي عندما بلغ القذافي السابعة، فأخبر الولد القصص عن السنوسي الكبير الذي أسس الحركة الصوفية ووحّد الكثير من القبائل الليبية[٣].

التحق معمّر بالمدرسة الابتدائية في سرت، على بعد نحو ٣٠ كلم من خيمة عائلته. وأقام في أسبوع الدراسة في سرت ينام في جامعها بسبب افتقاره إلى المال، ثم يعود في يوم الخميس سيراً إلى دياره لقضاء فترة نهاية الأسبوع القصيرة. وبدأ في البراعة في الدراسة الثانوية في سبها بعد انتقال عائلته إليها. وهناك بدأ انشغاله بالسياسة.

كانت تلك السنوات الأولى للجمهورية المصرية عقب انقلاب عبد الناصر في ١٩٥٢، إضافة إلى ظهور حركة التحرير الجزائرية. وأنشأ القذافي أولى الخلايا السرّية مع رفاق صفّه ومن بينهم عبد السلام جلّود الذي استمر طوال حياته على صلة وثيقة

(١) Jouve, Ibid., pp. 81-82 والتوكيد هنا مضاف. يمكن للمرء أن يتخيّل بسهولة الرعب النفسي الذي أثاره قصف الأطلسي في القذافي.

(٢) Ayoub, Mahmoud Mujstafa, Islam and the Third Universal Theory: The religious thought of Ma'ammar al-Qadhdhafi, KPI, London, New York and Sydney,1987, pp. 12, 15, 13.

(٣) Blundy, Op. cit., p. 36.

به. واستمع القذافي بانتباه شديد إلى خطابات عبد الناصر التي تُبث إلى ليبيا من مصر، ودرس كتابه «فلسفة الثورة». وأخذ يحفظ خطابات عبد الناصر عن ظهر قلب ويعيد تسميعها كلمة كلمة لأبناء جيله وهو يقف على مقعد صغير يُستخدم صندوقاً للصابون. وفي رأي محمد هيكل أن القذافي بالرغم من حفظه الكثير لم يستوعب إلا القليل(١). ويتذكّر أحد أساتذته أن القذافي سأله على نحو صريح جدّاً عن كيفية تنظيم بنية هرمية لثورة على الملك إدريس، العاهل الذي اشتهر بفساده واستسلم لمطالب الخارج بإقامة قواعد عسكرية.

أوقعته بلاغته الثورية وتنظيمه السياسي في المشاكل. فقد جمع في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦١ رفاق صفه في تظاهرة مؤيدة لعبد الناصر تندّد بالقواعد العسكرية الأجنبية في بلاده. وأدى ذلك إلى طرده من المدرسة، ولكن ربّما أيضاً إلى قدر كبير من إعجاب معاصريه، الأمر الذي زاد من تقديره المبالغ فيه لأهميته.

تلقّى تدريبه العسكري الرسمي في الكلية العسكرية الملكية في بنغازي التي وُصفت بـ«ساندهورست» الليبية. وروى القذافي: «عندما قررنا الذهاب إلى الكلية العسكرية لم يكن لأننا أردنا أن نصبح جنوداً محترفين بل لأننا أردنا اختراق المؤسسة والتحضير للثورة». وندب «احتلال القوى الأجنبية لليبيا»: احتوت البلاد على قواعد أميركية وبريطانية إضافة إلى الإيطاليين. وقال: «قضى واجبنا بتحرير بلادنا من هذا الاحتلال»(٢).

وصف العقيد تيد لوف، الذي قاد البعثة العسكرية البريطانية ما بين ١٩٦٠ و١٩٦٦، القذافي بأنه «أحد تلامذة الضباط الأكثر تخلّفاً عندنا»، وقد فشل في امتحاناته ورفض تعلّم الإنكليزية. ولم يكتف لوف بكره القذافي، بل اعتقد بأنه «وحشي بطبعه»، واشتبه في أنه مسؤول عن مقتل تلميذ ضابط رفيق له إضافة إلى قائد الكلّية في ١٩٦٣. أقام ضابط آخر يكره القذافي، هو الرائد جلال الدغيلي، شكلاً سادياً بنوع خاص من أشكال معاقبته على وقاحته: فقد أجبره، وهو يحمل

(١) المصدر السابق، ص. ١٨.

(٢) Jouve, Op. cit., p. 82.

حقيبة ظهر ثقيلة أن ينكبّ على الأربع ويدبّ على الحصى في الحرّ اللافح، «إلى أن ينفصل جلده عن ركبتيه»[١].

وتسهل رؤية كيف يمكن لهذا النوع من المعاملة القاسية، بالرغم من أنه أمر معهود في تلك المؤسسات،أن يشعل الغضب في ذهن شاب صدمته الحرب بشدّة وهو ولد وقد تعرّض لغارات قصف مستمرة ولمشاهد الموت والاحتضار. وترعرع الشاب نفسه على قصص تتعلق بالأجانب الأشرار الذين حاربهم أجداده حتى الموت، وتغذّى بالخيالات المتعلقة بالانتقام من هؤلاء الدخلاء المكروهين.

وأتت القذافي فرصة أن يعيش تلك التخيّلات في الانقلاب الذي قاده في ١٩٦٩ ضد إدريس. وأنشأ أولى خلاياه وهو لا يزال في المدرسة في مصراتة، وفرض انضباطاً صارماً على المتآمرين معه. وفي ١٩٦٤، شرعت اللجنة المركزية لما ستصبح حركة الضباط الأحرار في عقد اجتماعاتها المنتظمة وفي التجنيد. ودبّر القذافي في ١٩٦٦ المشاركة في دورة تدريبية في مقر الفيلق الملكي المدرع في دورسيت. وقد ذُكر عنه كرهه لبريطانيا وللبريطانيين[٢]. والغريب في هذا السياق ملاحظة أن لوف أفاد الاستخبارات البريطانية، التي تملك ملفّاً عن القذافي بشكوكه حيال عنفه؛ ومع ذلك سُمح له بالسفر إلى بريطانيا للتدرّب.

الأجانب الآخرون

استفاد القذافي بالفعل من خدمات جارته المتوسطية، إيطاليا، بالرغم من كرهه الإيطاليين بوصفهم جائرين. وتبيّن أن جهاز الاستخبارات السرّية الإيطالية متورّط جدّاً في الانقلاب. فقد قام جيوفاني فاسانيلا، الصحافي والمؤلف الإيطالي بتلخيص الحادثة التي كتب عنها في مقابلة مع «كادوينبيادي»[٣]. «نظّمت الاستخبارات الإيطالية [انقلاب ١٩٦٩] في أحد فنادق أبونا تيرمي في فينيتو. القذافي صنيعتنا وقد درس في الأكاديميات العسكرية الإيطالية». وأضاف فاسانيلا أن الإيطاليين

(١) Blundy, pp. 42, 46.

(٢) المصدر السابق، ص. ٤٧ – ٥٠.

(٣) Fasanella, Giovanni, “Gheddafi: UnaStoriaItaliana,” Cadoinpiedi, February 22, 2011.

أنقذوا حياة القذافي مرتين على الأقل، «الأولى قبل الانقلاب». وشرح أن الإنكليز «الغاضبين من القذافي لطرده قواعدهم العسكرية في ليبيا، نظّموا حملة عسكرية مؤلفة من مرتزقة مدفوعي الأجر وجهّزوا سفينة تقلّهم إلى الساحل الليبي». وقضت مهمة المرتزقة بتحرير السجناء المناهضين للقذافي ليقوموا بثورة ضده. غير أن أجهزة الاستخبارات الإيطالية «اعترضت الباخرة في مرفأ ترياست وأخبرت القذافي». وفي مناسبة أخرى حذّر الإيطاليون القذافي مسبقاً من مؤامرة فرنسية لإسقاط طائرته.

ولم يكن القذافي الوحيد الذي يدبّر انقلاباً، فرئيس الوزراء الليبي، بكّوش، كان بين أربع شخصيات تعبّئ مجموعات مختلفة من الضباط والمثقفين ضد الملك إدريس الضعيف والفاسد. وزعم بكّوش لاحقاً أنه أبلغ كلاً من الأميركيين والملك في شأن خطط القذافي الانقلابية، وأن واشنطن امتلكت روابطها الخاصة بالمتآمرين. وقضت نظرية بكّوش بأن الولايات المتحدة، وقد خشيت من انقلاب يقوم به ضباط أكثر كفاية وتحالفاً سياسيّاً مع عبد الناصر، اختارت دعم القذافي أملاً منها في السيطرة عليه(١).

ما إن أصبح القذافي في السلطة حتى تمتع بدعم الأمر الواقع من الأميركيين. وسرّبت منشورة دورية إيطالية أخيراً أن وزارة الخارجية الأميركية أصدرت مذكّرة مؤرّخة في العاشر من أيلول/سبتمبر تشير إلى «ممانعة [القذافي] في التعاون» مع الولايات المتحدة، لكنها خلصت إلى القول بأنه «يقترب جدّاً من أن يصبح الرجل الذي لا غنى عنه في الجمهورية العربية الليبية. والمرجح جدّاً، في حال اختفائه عن المسرح السياسي، أن تنتج من ذلك فترة من عدم الاستقرار». وجاء في النص نفسه: «القذافي هو الفيلسوف، والمحرّك الكاريزمي للرجال، والقوة الدافعة للثورة الليبية من مبادرة إلى أخرى، وخصوصاً في مجال السياسة الخارجية»(٢).

باتت قصة الانقلاب الأبيض الذي حصل في الأول من أيلول/سبتمبر ١٩٦٩

---

(١) Blundy, Op. cit., pp. 53-55.

(٢) MassimilianoCricco and Federico Cresti, “Psicogeopolitica di Gheddafi,” I QuaderniSpeciali di Limes – Rivistaitaliana di Geopolitica, “La Guerra di Libia,” April 2011, Anno 3. n. 2. L’Espresso, Roma.)

من التاريخ. وسرعان ما ستصبح مادة أسطورية بالنسبة إلى القذافي إذ يرتكز مطلبه بالشهرة على هذا الإنجاز. وفي بيانه الأول إلى الشعب باسم مجلس قيادة الثورة، أشاد بإرادة الشعب وبإقدام الجيش:

«يا شعب ليبيا العظيم! استجابة لإرادتكم الحديدية من أجل تقرير المصير؛ وتحقيقاً لتطلعاتكم الثمينة؛ وردّاً على دعوتكم المستمرة للتغيير والتطهير؛ وإصغاء لحثّكم على التحرّك والمبادرة، والثورة والعمل الحاسم، أنجزت قواتكم المسلحة قلب النظام الرجعي المتخلّف والمتعفّن - الذي أزكمت رائحته النتنة الأنوف واقشعرّت من رؤية معالمه الأبدان. وهكذا، وبضربة واحدة من جيشكم البطل، سقطت الأصنام وتحطّمت. وفي لحظة قدرية واحدة ومهيبة بُدّدت ظلمة العصور - من الهيمنة التركية أوّلاً، ثم الطغيان الإيطالي، وأخيراً عهد الحكم الرجعي، عهد الرشوة والوساطة والمحسوبية...».

الزعيم الضّال

ما إن عزّز القذافي سلطته حتى شرع في عدد من المبادرات المحلية والسياسية الخارجية أظهر فيها نفسه، كما وصفه تحسين بشير، بأنه «دينامي بطريقة مزعجة، ضال كصبيّ صغير»(١). ولاحظ محمد هيكل أن «القذافي، كالبدوي، يمكنه أن ينتقل في أي لحظة من موقف إلى موقف آخر مناقض تماماً»(٢).

في إبان وجودي في الخرطوم في التسعينيات سألت صديقاً سودانياً، تبوّأ وقتئذ مركزاً حكوميّاً رفيعاً، ما الذي يمكنه أن يخبرني إياه عن القذافي. وجاء جوابه أن الرجل ضال جداً ويمكنه أن يكون عقلانياً ورضيّاً في لحظة واحدة، ثم يتطاير غضباً في أخرى. كما أنه يستطيع تبديل تحالفاته بالسهولة نفسها. وستثبت الأحداث أنه مصيب.

ظهرت هذه السمة، الموجودة عادة لدى الشخصيات النرجسية، في مغامرات

(١) Blundy, Op. cit., p. 70.

(٢) Heikal, Op. cit., p. 187.

القذافي في السياسة الخارجية، وعلى رأسها سياساته التحالفية. وسعى منذ البداية، وفي ذهنه الحلم الناصري بالوحدة العربية، إلى كونفدرالية مع مصر وسورية. ولما تردّد السادات في ١٩٧٢-١٩٧٣ بعدما اعتبر أن القذافي يشكّل تهديداً محتملاً، سافر الزعيم الليبي في البداية إلى القاهرة لتذليل العقبات مهما كانت، ليعود بعدها إلى ليبيا وينظّم «مسيرة الشعب» إلى مصر للضغط في اتجاه الوحدة. أوقفت مصر المسيرة عند الحدود. وأصدر القذافي تطمينات بأن العلاقات بينهما سليمة، سوى أن مجموعة ليبية متطرفة حاولت التحريض على انقلاب على السادات، وتدهور الوضع. وبحلول ١٩٧٥ أخذ القذافي يشنّ حملة دعاية ناشطة ضد السادات وسرعان ما انزلق التوتّر إلى أعمال عدائية صريحة.

تابع القذافي حلمه الناصري بالوحدة العربية، وحاول إبرام الوحدة مع تونس الأمر الذي رفضه بورقيبة. وساند القذافي بداية جبهة البوليساريو ضد المغرب، لكنه تخلّى عنها وأقام الوحدة مع المغرب. وبعدما فشل مشروعه في الوحدة المغاربية، تحوّل صوب الدول الإفريقية مقترحاً عليها الانضمام إلى وحدة سيعيد، بطريقة ما، تسميتها «عربية». ساند القذافي أوّلاً المتمردين الإيريتريين لكن، ما إن تولّى منغيستو السلطة، حتى انتقل إلى موقف مؤيد لأثيوبيا على أساس أنها دولة مسلمة[1].

الكتاب الأخضر

قد يصعب الأمر على التصديق، لكنه صحيح: فأحد الألقاب غير الرسمية التي أطلقت على القذافي في السنوات الأخيرة هو «الزعيم والمفكّر». وأكّد القذافي في الواقع، عبر مجاله الأقل ترجيحاً، استحقاقه الأعظم والطنّان للشهرة المستند إلى مزايا مؤلّفه الأعظم، الكتاب الأخضر. ويجب النظر إلى هذا الكتاب، الذي نُشر في ١٩٧٦-١٩٧٩، من ثلاث زوايا، بمحتواه أوّلاً، انطلاقاً من نظرياته الأساسية وتطبيقاتها المقترحة؛ وبوظيفته، ثانياً، كأساس إيديولوجي لنظام دولة القذافي؛ ودوره، ثالثاً، كوسيلة لشبه تأليه القذافي ورفعه إلى أسمى مرتبة بوصفه فيلسوفاً في المجتمع الدولي، أو أقله في أجزاء منه.

(١) Sicker, Op. cit., pp. 69-89, Heikal, pp. 148-198.

ويمكن لأي قارئ عادي الاطلاع على العمل نفسه، واستيعابه، والتعامل معه في فترة قصيرة نسبيّاً، ولا يتطلب الأمر معرفة فكرية وسياسية أو علمية استثنائية. فهو نتاج محاولة بسيطة (إذا لم تكن تبسيطية)، صبيانية لتصوّر نظام اجتماعي تسوده الديمقراطية الحقّة. ويحاجُّ القذافي ضد أنواع الديمقراطية التمثيلية كافة بما خص «تمثيلها»، بمعنى أنها لا تشكّل تعبيراً مباشراً عن الشعب. ويشكّل مشروعه تشكيل اللجان الشعبية والمؤتمرات الشعبية محاولة لتحديد شكل من أشكال الديمقراطية المباشرة التي تشكّل، برأيه، الحل النهائي لذلك.

كتب أن «مجرد وجود مجلس نيابي يعني غياب الشعب. فالديمقراطية الحقيقية لا تقوم إلا بوجود الشعب نفسه»[1]. ومن قبيل ذلك فإن «الحزب هو الديكتاتورية العصرية، وهو أداة الحكم الديكتاتورية الحديثة. إذ إن الحزب هو حكم جزء للكل». أضف إلى ذلك أن «الحزب هو قبيلة العصر الحديث، هو الطائفة. إن المجتمع الذي يحكمه حزب واحد هو تماماً مثل المجتمع الذي تحكمه قبيلة واحدة أو طائفة واحدة».

يقع الحل في إنشاء مؤتمرات شعبية، يتم توزيع الناس عليها. «يختار كل مؤتمر شعبي أساسي أمانة له. ومن مجموع أمانات المؤتمرات تتكوّن المؤتمرات الشعبية غير الأساسية. ثم تختار جماهير تلك المؤتمرات الشعبية لجاناً شعبية إدارية لتحل محل الإدارة الحكومية، فتصبح المرافق كلها في المجتمع تدار بواسطة لجان شعبية. وتصير اللجان الشعبية التي تدير المرافق مسؤولة أمام المؤتمرات الشعبية الأساسية التي تملي عليها السياسة وتراقبها في تنفيذ تلك السياسة».

أما بالنسبة إلى الشريعة فيكتب القذافي أن الشريعة الطبيعية ترتكز إما على العرف وإما على الدين، وبالتالي فإن الدساتير، التي لا ترتكز على مثل هذه المصادر الطبيعية، غير شرعية. وكتب عن الحريات الصحافية «أن الشخص الطبيعي حرّ في التعبير عن نفسه حتى ولو تصرّف بجنون ليعبّر عن أنه مجنون».

يعالج القذافي في الجزء الثاني من «الكتاب الأخضر» الاقتصاد نظريّاً وتطبيقيّاً.

(١) الكتاب الأخضر، الجزء الأول.

ويعلن في هذا الصدد أن نظام العمل لقاء أجر هو في الأساس نظام عبودي يجب إلغاؤه والاستعاضة عنه بـ«الاشتراكية الطبيعية».

وتعاطى القذافي في الجزء الثالث والأخير مع التنظيم الاجتماعي من الأسرة إلى القبيلة فالأمة. وكتب «القبيلة هي الأسرة بعد أن كبرت... والأمة هي قبيلة كبيرة. والعالم هو الأمة بعد أن تشعّبت إلى أمم. إذاً العالم هو أمة كبيرة. فالإنسانية هي القومية؛ والقومية هي القبيلة؛ والقبيلة هي الرابطة الأسرية».

وتوفّر القبلية «نمط سلوك» لأفرادها، كما توفّر لهم «دية جماعية وغرامة جماعية وثأراً جماعيّاً ودفاعاً جماعياً، أي حماية اجتماعية». ومن هنا ينطلق القذافي إلى مفهوم الأمة. «الأمة هي... تكوين اجتماعي علاقته (القومية)؛ والقبيلة تكوين اجتماعي علاقته (القبلية)؛ والأسرة تكوين اجتماعي علاقته (الأسرية)؛ وأمم العالم تكوين اجتماعي علاقته (الإنسانية)... هذه بديهيّات».

أمعن القذافي النظر أيضاً في الاختلاف بين الجنسين. وقضت فكرته الأساسية بأن الجنسين مختلفان، إنها حتمية بيولوجية، وبأن على المرأة أن تكرّس أساس وقتها وطاقاتها لتربية أولادها. وعلى الأولاد دخول المدارس ما إن يبلغوا سن الدراسة. ويعلن القذافي على نحو قاطع أن «التعليم الإجباري... هو أحد الأساليب القامعة للحرية... وأن يُجبر الإنسان على تعلّم منهج ما، عمل ديكتاتوري». ويمضي معلناً: «أن أساليب التعليم السائدة في العالم كافة يجب أن تحطّمها ثورة ثقافية عالمية تحرّر عقلية الإنسان من مناهج التعصّب والتكييف العمدي لذوق ومفهوم وعقلية الإنسان». ولا يعني هذا أنه يجب إقفال أبواب دور العلم، بل أن يُترك للناس حرّية التوجّه إلى أي علم تلقائيّاً. «إن الجهل سينتهي عندما يُقدّم كلّ شيء على حقيقته، وعندما تتوافر معرفته لكل إنسان بالطريقة التي تناسبه».

تحسّر القذافي، في ما يتعلّق بالتواصل بين جميع الشعوب، على غياب لغة إنسانية واحدة، لكنه يعتقد أن «بلوغ البشرية تلك الغاية يبقى مسألة وقت ما لم تنتكس الحضارة».

يمكن للمرء أن يحاجَّ في جدارة أو عدم جدارة المفهوم المطروح في «الكتاب

الأخضر»، لكن عندما يقارنه على نحو الحكم الفعلي الذي أقامه القذّافي بعد انقلاب ١٩٦٩ فعليه أن يستنتج أن نظريته وتطبيقها يقعان على طرفي نقيض. فقد أقام القذافي، بالرغم من كل الكلام عن سلطة الشعب والديمقراطية المباشرة، نظاماً ديكتاتورياً بعيد استيلائه على السلطة، وإن السلطة كلها تقع في الواقع بين يدي الرجل الذي لا يملك مناصب رسمية – أي القذافي.

حظر القذافي، بعد وقت قصير على انقلابه الناجح، الأحزاب السياسية كافة، وسيطر من فوق على الصحافة، ومحا النقابات من الوجود[1]. جاءت نقطة التحول إلى الديكتاتورية في ١٩٧٣ مع خطاب زوارة في ١٥ نيسان/أبريل ١٩٧٣، وهو إعلان يدعو إلى نظام جديد اعتبره ضرورياً في ضوء فشل التضامن العربي. ألغى الإعلان القوانين الموجودة كافة، وحظر الجماعات المعارضة بوصفها «مرضاً سياسياً»، أي البعثيين والشيوعيين والإخوان المسلمين وسواهم، ودعا إلى تسليح السكان، وإلى «ثورة إدارية» وثورة ثقافية للسيطرة على الجامعات[2]. كما دعا القذافي في هذه المناسبة إلى تشكيل «اللجان الشعبية» كما تصوّرها في «الكتاب الأخضر». شرح القذافي بعد ذلك ببضعة أيام نظريته الكونية الثالثة التي شكّلت أساس إعلان زوارة. وهذه النظرية الكونية الثالثة (أي لا الشيوعية ولا الرأسمالية بل الطريق الثالث) طرح سبق أن ورد في «الكتاب الأخضر». ولم يطرحها القذافي كاقتراح أو فكرة أو مفهوم، بل بوصفها «الحقيقة». وأبلغ في ١٤ أيار/مايو إحدى المجموعات أنه «عندما نتحدث عن النظرية الكونية الثالثة فإننا نشدد على أنها ليست من صنع الإنسان كما أنها ليست فلسفة، وإنما هي تستند إلى الحقيقة».

هذا هو لبُّ المسألة. ويبدو أن القذافي، ولو لم يمتلك الوقاحة لتأكيد الأمر بصريح العبارة، يعتبر «الكتاب الأخضر» في الأساس بوصفه الخلف المكتوب للقرآن الكريم من حيث احتواؤه على الحقيقة المرتبطة بالإنسان والمجتمع. فادعاؤه امتلاك الحقيقة المطلقة واضح، إذ أبلغ إدموند جوف أن «الكتاب الأخضر لا يسعى إلى حل المشاكل المادية وحسب، بل يهدف أيضاً إلى فتح الطريق إلى حل شامل

(١) Blundy, Op. cit., p. 63.

(٢) المصدر السابق، ص. ٨٥ – ٨٦.

لمشاكل المجتمع لضمان التحرر الكامل المادي والمعنوي للشخص، إضافة إلى سعادته. وتهدف النظرية الكونية الثالثة بعرضها نظريّة تحرير الشخص من العوز إلى أن تشكّل دليل الطريق إلى تحقيق تحرير الإنسان»(١).

أدى «الكتاب الأخضر» دوره بوصفه النص المكتوب لعملية غسل دماغ الشعب الليبي. وقد توجّبت قراءته في كل المدارس وعلى كل المستويات؛ وعُرضت منحوتات له في الساحات العامة، وظهرت ترجماته في عدد كثير من اللغات. ومن طبيعة الأمور أن يتلقى كل زائر لليبيا القذافي نسخة منه.

افتُرض بكتاب القذافي أن يبقى أداة لغايات الدعاية الداخلية لولا أن النظام، مع المشاركة الفاعلة للدوائر المثقّفة في الغرب التي وجدت في «الكتاب الأخضر» فائدة لعدد كبير من الأسباب، حوّله إلى موضوع حقيقي للنقاش الأكاديمي باتت تتم الموافقة عليه كموضوع للأطروحات الجامعية وللحصول على درجات الشرف العلمية. والأهمّ هو انعقاد سلسلة من المؤتمرات الدولية والندوات وغيرها حول الموضوع سعت إلى تثبيت القذافي وكتابه الأخضر بوصفهما محاورين فكريين.

عُقدت سلسلة من الندوات العالمية المخصصة لـ«فكر معمر القذافي»، كما لو أنه يشارك إدوار سعيد في المرتبة الفكرية أو الفلسفية. وتكلّم القذافي في واحدة من الندوات في بنغازي في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٩، وأخرى عقدت بعدها في مدريد في كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٠. تحدّث الزعيم الليبي عبر الأقمار الصناعية ليبعث بالرسالة الآتية: «كان الشرق دوماً مهد الحضارة والأفكار التي غيّرت وجه العالم. ولا يجب أن نُسقط إمكان أن يولّد مرّة أخرى نظاماً عالميّاً جديداً. فعلم الرياضيات وعلم الفلك والطب ... شكّلا هدايا للعالم من ابتكار الشرق، بعربه ومسلميه. ويمكن، من قبيل ذلك، للنظرية الكونية الثالثة، التي انطلقت من الشرق، أن تؤدي إلى بروز شكل جديد من أشكال الحضارة التي لم يدخرها الشرق، بعربه ومسلميه، حصراً لنفسه. بل نريد للإنسانية جمعاء أن تستفيد منها تماماً كما أمكنها أن تستفيد من مزايا الحضارات السابقة»(٢).

---

(١) Jouve, Op. cit., pp. 37-38.

(٢) المصدر السابق، ص. ٣٧ - ٣٨.

استضافت بنغازي في نيسان/أبريل ١٩٨٣، «ندوة دولية حول فكر معمر القذافي»، جمعت نحو ألف «ثوري»، بمن فيهم ممثلون لعشر منظمات أميركية ضمّت أعداداً من الإفريقيين الأميركيين والأميركيون الهنود وأمة الإسلام، وغيرهم[1]. وأخذت الأعمال المنشورة حول فكر القذافي، تضاف إليها الندوات والحلقات الفكرية، في الظهور كنتيجة للدراسات الجامعية الموجّهة في هذا الاتجاه[2]. وقامت ليبيا، في الكثير من الحالات، «بتشجيع» مثل هذه الدراسات ماديّاً.

ولهذا كلّه صلة بإدراك حاجة القذافي إلى تعظيم الذات. وخصص، بوصفه رئيساً للدولة، الأموال والموارد اللوجستية لعدد من مثل هذه الندوات والمؤتمرات ووظيفتها الأساسية تمجيد «فكر» معمر القذافي. وبات «الكتاب الأخضر» رمز الأنا المنتفخة للقذافي، ولادعائه النرجسي بأنه الوحيد الذي يجسّد الحقيقة النهائية. ولا عجب في أن ينقضّ الشباب الليبي الذي قام بالثورة على الأنصاب العامة التي أقيمت للكتاب الأخضر، ويحطّمها.

القذافي: المفكر والشاعر وعبقري الأدب

إذا شكّل «الكتاب الأخضر» طلب القذافي للشهرة العالمية بوصفه مفكّراً سياسيّاً مبدعاً من شأن مفهومه الاجتماعي-السياسي أن يحلّ مشاكل العالم كافة، فإن أعماله الأخرى مثّلت تأملاته الأكثر أدباً وفلسفة في المسائل الوجودية الأساسية وهي ما يسميها الألمان «الله والعالم».

بيد أن هذه المؤلفات، بالرغم من أنها تُرجمت إلى لغات أخرى ونُشرت بإصدارات فخمة، لم تطغ (بعد) على الساحة الأدبية ولم تثر ثورات ثقافية في الدوائر الثقافية الأخرى. وأحد هذه الأعمال، وعنوانه «الفرار إلى جهنم» وقد صدر

(١) Sicker, Op. cit., p. 120.

(٢) أنظر- See Lohmann, Heiner, Strukturen mythischen Denkens im Grünen Buch Mu'ammar al-Qaddafis: Eine kommunikationstheoretische Untersuchung zur Rationalität eines soziozentrischen Weltbildes im Islam mit einer Neuübersetzung des Grünen Buches im Anhang, Lit Verlag Dr. W. Kopf, Berlin, 2009, and Ayoub, Op. Cit.

بالإنكليزية في ١٩٩٨، يشكّل مجموعة من روايات القذافي ودراساته. ولم تُذيّل مقدّمته بأقل من توقيع بيار سالينجر المفكّر السياسي، وهو يضم بعضاً من كتابات القذافي الروائية التي توسّع وتفصّل أفكاراً عرضها بطريقة جافة وأكثر تجريدية في كتابه الأخضر.والفكرة الأساسية للكتاب هي أن كل ما في المدينة سيئ وكل ما في الريف (وخصوصاً في مجتمع بدو الصحراء) جيّد. ويتم التعبير عن المقارنة بعبارات قصوى، بما يتناسب مع الشخصية النرجسية التي لا تستطيع فهم الواقع إلا بعبارات الأبيض والأسود.

وهكذا، يُقال لنا في الرواية الأولى، «المدينة»، أنها كابوس... حشر معيشي «لا يأتي إليها أحد إلا من أجل العيش والطمع والكد... والحاجة، والوظيفة التي تجبره على أن يعيش في مدينة». وهي «مقبرة الترابط الاجتماعي». والتجاهل في المدينة لافت: لا يعرف الناس بعضهم بعضاً، ولا حتى الجيران. «المدينة مجرّد حياة دوديّة، بيولوجية، يحيا فيها الإنسان ويموت بلا معنى... بلا رؤية، بلا تروّ. يعيش ويموت وهو داخل قبر في الحالتين».

خطيئة المدينة الكبرى، بالنسبة إلى القذافي، هي أنها ابتلعت ودمّرت ما كانت سابقاً أرضاً زراعية. «المدينة ضد الزراعة؛ تبني على الأرض الزراعية، تقتلع الأشجار المثمرة، تجذب الفلاحين وتغريهم ليتركوا الزراعة ويتحوّلوا إلى أرصفة المدينة تنابلة كسالى، عاطلين متسوّلين. وفي الوقت نفسه تلتهم المدينة كل الإنتاج الزراعي وتطلب المزيد. المدينة ضد الإنتاج..». وفوق ذلك كلّه، «المدينة تقتل الحس الاجتماعي والمشاعر الإنسانية»، ويخلو مواطنوها من أي تعاطف مع أخيهم الإنسان.

ومن ناحية أخرى، وعلى ما تصوّره «القرية»، فإن الريف جنة على الأرض. «هناك تشجيع وتمجيد بالانطلاق والظهور إلى النور. هناك تحاكي الطيور والزهور في التحرر والتفتح... كل أهل القرية والريف والنجع مترابطون حتى النهاية، تربطهم كل الوشائج المادية المعنوية».

«أيها العقلاء، أيها الرحماء، أيها الإنسانيون ارحموا الطفولة. فلا تخدعوها بالعيش في المدينة». كل شيء هادئ، نظيف، ودّي، والجميع يعرفون بعضهم

بعضاً، وتغيب الجريمة. «هناك توجد الحياة الإنسانية الاجتماعية، هناك الأسرة المترابطة، والعائلة المتماسكة، والقبيلة المتضامنة. هناك الثبات والإيمان والصفاء. فالكل يحب بعضهم بعضاً، وكلّ في مزرعته، أو مع شياهه ودواجنه، أو خدمة القرية والريف»[1].

ومن بين القصص الأخيرة الأخرى في هذا الكتاب واحدة عنوانها «انتحار رائد الفضاء». وهي تروي حكاية رائد فضاء عاد إلى الأرض من الجو وبحث عن شكل عادي من أشكال التوظيف، لكنه لم يعثر. ثم التقى فلاحاً وطلب العمل في المزرعة. ولما سأله الفلاح هل يعرف شيئاً عن حراثة الأرض ردّ رائد الفضاء بوقائع وأرقام خبرها كمسافر في الفضاء، لكن الفلاح أصيب بالضجر. وانتهى الأمر برائد الفضاء إلى الانتحار.

وهناك قطعة أخرى عنوانها «الموت» وتبدأ بسؤال: «هل الموت ذكر أم أنثى؟» وعاد القذافي في الزمن متأملاً في الكفاح البطولي لأجداده، ليجيب بأن الموت ذكر «ومهاجم دائماً». ويحارب المرء الموت الذي «يظهر في تلك الكيفية كرجل شجاع للغاية... إلا في المرات الخطرة التي يصل فيها الموت إلى غايته بسهولة، فهي التي يتحول فيها إلى أنثى». ولماذا يتحول الموت إلى أنثى، «لأن الأنثى يجب الاستسلام لها حتى الرمق الخير».

من الصعب أن نحدّد مدى أهمية إنجازات القذافي الأدبية إليه في خارج «الكتاب الأخضر». ولمّا سئل عن الإرث الذي سيخلفه، أجاب: «يجب أن يُكتب في سجلات التاريخ أنني حرّرت شعبي، وفي ما هو أبعد من ذلك بأنني، قطعاً، غيّرت العالم. أوجدتُ ليبيا، ويمكنني أيضاً أن أدمّرها». وأوجز في مناسبة أخرى إنجازات حياته بقوله: «لقد أوجدت المدينة الفاضلة»[2].

(١) Qaddafi, Muammar, Escape to Hell and other stories, Stanké, Montreal, New York,1998, pp. 29-57.

(٢) Blundy, Op. cit., p. 26

الفصل الثالث

مبارك، رعمسيس المعاصر

كان حسني مبارك صريحاً جداً في جوابه ردّاً على الانتفاضة الشعبية على نظامه في كانون الثاني/يناير ٢٠١١. وليس الأمر إقصاراً في القول، وإنما هو حقيقة سريرية يعرّفها أخصائيو الطب النفسي بـ«الادعاء الارتكاسي بالموت»: يردّ الشخص الذي يعيش تجربة صادمة، أي حدثاً يبدو أنه يهدّده بالإصابة أو بالموت، بالخوف والامتناع. وإذا كان الشخص، كما في حالتنا هذه، زعيماً سياسيّاً، فإن مثل هذه المواجهة مع حدث خارج تماماً عن تجربته العادية ويهدّد استمرار وجوده السياسي، لن تنتج الخوف فحسب بل الشعور بالعجز أو الرعب. وربما خضع المرء لسلسلة من ردّات الفعل في استجابته لهذا الحدث غير المتوقّع أبداً الذي يفرض مطالب تفوق قدرته على معالجة التجربة. وسيحاول أولاً، بتصرّف نابع من الخوف، الهروب ويصاب بالشلل – «الادعاء الارتكاسي بالموت». وقد يعمد المرء، في ردة فعل انهيارية، إلى الانطواء على نفسه أو يتملّكه الغضب، على أن يختبر بعد ذلك شعوراً بالعياء والاستسلام. وتتضمن ردّة فعل ممكنة ثالثة، توصف بالهستيرية، الانسحاب إلى مسافة ما بالتزامن مع محاولة لتبرير سلوكه. ويسيطر الغضب والسخط على الشخص الذي يُظهر من ثمّ شكلاً من أشكال الانفصام[1].

---

(١) AlfriedLaengle, “Personality Disorders and Genesis of Trauma: Existential Analysis of Traumatized Personality Disorders,” In: Existenzanalyse 22, 2, 4-18, 2005, pp. 1-4.

ظهرت، في حالة مبارك، العدّة الكاملة لردود الفعل السريرية هذه. وقضت ردّة فعله الأولى بالهروب من عواقب ميدان التحرير والاحتماء بملجئه على شاطئ شرم الشيخ حيث بقي متحصّناً هناك وفي منأى عن أنظار العامة. واستغرق الأمر أربعة أيام من التظاهرات التي لم يسبق لها مثيل، استخدمت فيها الشرطة القنابل المسيلة للدموع ومدافع المياه ومن ثم الذخيرة الحيّة وقتلت ما يُقدّر بمئة شخص وجرحت ما يزيد على الألف، ليتمكن من استجماع قوته النفسية للتوجّه إلى شعبه. وأعلنت الصحافة أن ثمة بياناً وشيكاً للرئيس. غير أن مبارك أبقاهم منتظرين لساعات. ثم تحدّث عبر التلفزيون بعيد منتصف ليل التاسع والعشرين من كانون الثاني/يناير محاولاً تبرير أفعاله. قال: «أسفت كل الأسف على ما أسفرت عنه من ضحايا أبرياء من المتظاهرين وقوات الشرطة». وادعى، متجاهلاً الصور التلفزيونية التي شاهدها العالم عبر الإنترنت، أن الحكومة اتبعت «تعليماته» بالسماح للمواطنين بالتعبير الحرّ عن الرأي: «لقد التزمت الحكومة هذه التعليمات وكان ذلك واضحاً في تعامل قوات الشرطة مع شبابنا وقد بادرت إلى حمايتهم... قبل أن تتحوّل هذه التظاهرات إلى أعمال شغب». وقبل ذلك بيوم واحد اعتُقل ٢٠ عنصراً من عناصر الإخوان المسلمين بعدما اتهمتهم وزارة الداخلية بزرع الفوضى.

وحدّد مبارك، في مكان آخر من خطابه، أسباب الاضطراب في مطالب المصريين بـ«الإسراع في محاصرة البطالة وتحسين مستوى المعيشة ومكافحة الفقر والتصدّي بكل حزم للفساد». وتجاهل تماماً أن الشعب لا يطالب بالإصلاحات في ذاتها بل باستقالته. لم يعوّقه الأمر وتعهّد «بمواصلة الإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي من أجل مجتمع مصري حرّ وديمقراطي...». وأعلن في الوقت نفسه، أن وراء الاحتجاجات «مخططاً أبعد من ذلك لزعزعة الاستقرار والانقضاض على الشرعية..». والإجراء الملموس الوحيد الذي أعلنه هو حلّه الحكومة بالرغم من أن مئة مصري قتلوا حتى ذلك الوقت في المواجهات.

مرّت الأيام وتواصلت التظاهرات وتضخّمت أعدادها بالرغم مما أمرت به الحكومة من قطع للاتصالات الهاتفية وللتواصل عبر «الفيسبوك». وانضمّ الرئيس السابق للوكالة الدولية للطاقة الذرية محمد البرادعي، قبل خطاب مبارك الأول،

إلى الاحتجاجات. وتجمّع في ٣١ كانون الثاني/يناير ما قُدّر بربع مليون شخص في ميدان التحرير وأصدر الجيش بيانه الرسمي الأول يعلن فيه «أن القوات المسلّحة لن تلجأ إلى استخدام القوة ضد شعبنا العظيم»، في ضمان منه لحرّية التعبير. وشكّل هذا بالنسبة إلى مبارك، وهو من الناحية الرسمية القائد الأعلى للقوات المسلحة، حدثاً صادماً ثانياً، وهي خطوة أذنت بقرار الجيش الانضمام إلى الحركة. وسبق ذلك بيومين أن عيّن مبارك رئيس استخباراته، عمر سليمان، في منصب نائب الرئيس غير أنه استمرّ متمسّكاً بمنصبه. وقد فُسّر عن حقّ امتناعه على مرّ السنين عن تسمية نائب للرئيس بأنه تعبير عن نيته البقاء رئيساً مدى الحياة.

ملأ مليون متظاهر ميدان التحرير في الأول من شباط/فبراير عندما تحدّث مبارك للمرة الثانية. وواصل محاولة تبرير موقفه وقال متّهماً إن التظاهرات «بدأت بشباب ومواطنين شرفاء مارسوا حقهم في التظاهر السلمي... سرعان ما استغلّهم من سارع إلى إشاعة الفوضى واللجوء إلى العنف». وأعلن أنه كلّف نائبه الجديد إجراء الحوار «لكن هناك قوى سياسية رفضت هذه الدعوة إلى الحوار..». ولهذا يتوجّه بملاحظاته الآن «مباشرة لأبناء الشعب... مسلميه وأقباطه»، شارعاً في سلسلة من الأكاذيب صيغت كلّها لتبرير رفضه المستمر لمواجهة الواقع والتنحي.

وزعم: «إنني لم أكن يوماً طالب سلطة»، قبل أن يخوض في الثناء على نفسه في إنجازاته العسكرية «حرباً وسلاماً». مضيفاً: «إنني رجل من أبناء قواتنا المسلحة وليس من طبعي خيانة الأمانة أو التخلي عن الواجب والمسؤولية». وأصرّ بالقول: «لم أكن أنوي الترشح لفترة رئاسية جديدة. وقد قضيتُ ما يكفي من العمر في خدمة مصر وشعبها». وأضاف عدّة إشارات توضح أنه لن يستقيل: «لكنني حريص الآن على أن أختتم عملي من أجل الوطن»، و«سأعمل في خلال الأشهر المتبقية من ولايتي الحالية»، الخ.

تعهّد مبارك حفظ النظام العام والتحقيق لمعرفة المسؤولين عن الفوضى، ومع ذلك شنت في اليوم التالي عصبة من مؤيديه المسلحين بالسكاكين والهراوات، بتنظيم من أعضاء في الحزب الوطني الديمقراطي ، هجوماً مسعوراً على ظهور الأحصنة والجمال في قلب ميدان التحرير. وأفادت «رويترز» عن سقوط ثلاثة

قتلى وألف وخمسمئة جريح. وتحدّث مبارك إلى الـ«آي. بي.سي». في الثاني من شباط/فبراير، ليقول على نحو قاطع إن الخيار أصبح الآن بين النظام والفوضى. واستمرّ العنف وتصاعَد مع توسّع التظاهرات. وقدّرت الأمم المتحدة عدد القتلى حتى الخامس من شباط/فبراير بثلاثمئة. وحاولت الحكومة رمي الفتات إلى الحشود الجائعة معلنةً زيادة ١٥ بالمئة على الرواتب والمعاشات، كذلك أطلق سليمان وعوداً عامة بإصلاحات تشريعية ودستورية، إلا أن ذلك لم يؤدّ إلا إلى تصعيد الضغط الشعبي على مبارك للتنحي وقد ترافق ذلك مع دعم من النقابات والعمّال المضربين.

وأظهر مبارك مرّة جديدة، في سياق هذا الاضطراب كله، «الادعاء الارتكاسي بالموت»، منسحباً هذه المرة لتسعة أيام! وفي العاشر من شباط/فبراير، وفيما ملأت أعداد غير مسبوقة من المصريين شوارع القاهرة والإسكندرية والسويس وساحاتها متوقعين أن يسمعوه وهو يعلن استقالته، ظهر مبارك على التلفزيون في حالة انفصامية بعض الشيء وعرض المزيد من الشيء نفسه فقط. أشاد بخدمته «على مدى أكثر من ٦٠ عاماً حرباً وسلماً»، وأخبر الجيل الأصغر سنّاً في بلاده بأنه كان فتيّاً مثلهم عندما «تعلّمت الشرف العسكري والولاء والتضحية»؛ و«أمضيت حياتي مدافعاً عن الأرض والسيادة» و«عشت أيام الانكسار وأيام النصر والتحرير، وكانت أسعد أيام حياتي عندما رفعت علم مصر فوق سيناء». وأوضحت إشاراته المتكررة إلى «أيلول/ سبتمبر» وإلى مبادراته في التهيئة لعملية انتقال السلطة أنه ليس مستعدّاً للتزحزح.

هناك ثلاثة إعلانات، في ما سيصبح خطابه الأخير، تكتسب أهميةً خاصةً من وجهة نظر علم النفس. أولها نكرانه الملحّ بأن «الأمر ليس متعلّقاً بشخصي، بحسني مبارك، بل بمصر» بحاضرها وبمستقبل أبنائها. وقد حاول هنا تحرير نفسه من النزاع، ونكران دوره الشخصي في الأزمة. ويقرأ علم الطب النفسي المتخصص هذا على أنه من عوارض الهستيريا حيث يحاول الشخص داخلياً التملّص من أي مسؤولية. وثانيها ادعاؤه: «أنني لم أسع يوماً إلى السلطة أو شعبية زائفة، وأثق أن الأغلبية من الشعب تعرف من هو حسني مبارك». ويمكن هنا لمعالج نفسي محترف أن يرى المزيد من الدليل على فقدان الارتباط بالواقع. ويشكّل ما أعقب ذلك من بيان اعترافاً بأن شعبه، في النهاية، لا يحبه بالفعل: «يؤلمني رؤية كيف أن أبناء بلدي يعاملونني

اليوم». ومن شأن التحليل السريري أن يرى هنا بياناً صادقاً تلفّظ به شخص يعاني بالتحديد كونه غير محبوب.

لا بدّ أن حسني مبارك أدرك، بعدما أخذت الأحذية تتطاير في ميدان التحرير وتصيب صورته المعروضة على شاشة عملاقة، أن الوقت قد حان بالفعل لتوديع شعبه. والمُعبّر في الأمر هو أن سليمان أعلن نبأ الاستقالة وليس الرئيس نفسه. فالأحداث دمّرت أنا مبارك إلى حدّ عجز معه عن مواجهة كاميرات التلفزة والقول، أنا أتنحى؛ أي إنني في النهاية أعترف بالواقع. وبدا أنه بلغ المراحل الأخيرة التي جرى وصفها في الأحاديث عن «الادعاء الارتكاسي بالموت» وهي: العياء والاستسلام والخمول[1].

ما الذي حمل مبارك على الاستقالة؟ لقد تعرّض، كما أسرّ بذلك في خطاباته، إلى الضغوط الدولية التي انهالت عليه. وأقسم في خطابه الأخير أن: «ما لم ولن أقبله أن أستمع إلى إملاءات خارجية تأتي من الخارج أيّاً تكن مبرّراتها أو ذرائعها». وتم بالفعل توثيق أن رئيس أركان الجيش، سامي حافظ عنان، كان عند نشوب الأزمة في الولايات المتحدة للتشاور وسرعان ما لحقه وزير الدفاع حسين الطنطاوي. وأرسلت الإدارة الأميركية، في سياق الثورة، مبعوثاً إلى القاهرة ليقترح على مبارك الاستقالة. وهاتف الرئيس باراك أوباما شخصياً مبارك وكذلك اتصل كل من وزيرة الخارجية كلينتون ونائب الرئيس جو بايدن بنظيريهما المصريين. وفي خلال تلك الفترة تلقى ضباط أميركيون من المستويات والفروع كافة تعليمات بإعادة فتح اتصالاتهم المصرية من الموظفين العسكريين الذين تلقوا تدريباتهم في الولايات المتحدة أو درسوا فيها. ويمكن، نظراً إلى الدعم السياسي، وأيضاً المالي، اللذين قدّمتها الولايات المتحدة لمصر على مرّ العقود، إدراك مدى فاعلية الضغط الذي تمارسه.

النرجسية والفراعنة

من الدقة توصيف سلوك مبارك في خلال عملية الثورة بأنه «الادعاء الارتكاسي

(١) المصدر السابق، ص. ٦.

بالموت» وبالإنكار السريري، سوى أن ذلك لا يقدّم تشخيصاً كاملاً لمشكلته النفسية، لأنه يبدي للعيان أيضاً سمات كثيرة يتميّز بها اضطراب الشخصية النرجسية.

ويمكن للمرء القول، بطريقة ما، إن مبارك «ورث» النرجسية، ليس من أهله بل من سلفيه عبدالناصر وأنور السادات. وهو، على عكس القذافي، لم ينشئ بنفسه دولةً ديكتاتوريةً بل، وباتفاق المؤرّخين، ورث شكل الدولة الذي أنشأه عبد الناصر ومعها مؤسساتها الرائدة(١). استمرت بنية المؤسسات الأساسية، بالرغم من خضوعها لبعض التعديلات في ظل السادات،فتولاّها نائبه مبارك إلى جانب إرثه السياسي بعد موته اغتيالاً في ١٩٨١. صاغ كل من عبد الناصر والسادات عبادة الشخصية من حولهما بوصفهما قائدين أعليين، وبدا الأمر كما لو أن مبارك، بانتقاله إلى موقع الرئاسة، نما ليصبح زعيماً نرجسيّاً. إلا أنه توجّب، برأي المحللين النفسيين، أن يمتلك التركيبة الشخصية ليتمكن من تقمّص مثل هذا الدور.

للظاهرة تاريخ طويل في الثقافة المصرية تعود إلى الأزمنة القديمة حين رمزت شخصية الفرعون إلى سلطة الدولة. وذُكر أن السادات قال لمحمد هيكل: «أنا وجمال آخر الفراعنة العظام في تاريخ مصر»، وأكثر من ذلك فقد كرّرها ذات يوم للرئيس جيمي كارتر وإن كان قد طوّر النظرية، إذ قال لكارتر: «إن الناس ينظرون إليّ على أنني خليفة جمال عبد الناصر، وذلك ليس صحيحاً. فأنا لا أحكم مصر طبقاً لأسلوبه، ولكن أحكمها طبقاً لأسلوب رعمسيس الثاني»(٢). وقد أعطى المصريون منذ زمن طويل اللقب نفسه إلى مبارك، وقد وفّر كتاب حديث عنوانه «آخر الفراعنة: مبارك والمستقبل غير المؤكّد لمصر في الشرق الأوسط المتقلّب» :*The Last Pharaoh: Mubarak and the Uncertain Future of Egypt in the Volatile Middle East* مادةً مفيدةً تؤكّد هذا الزعم. ويلاحظ المؤلف علاء الدين الأعسر أن زعماء القرن العشرين المصريين الثلاثة من المعجبين بنوع خاص بالفرعون رعمسيس الثاني، ولسبب

(١) أنظر، على سبيل المثال Charles Tripp and Roger Owen, ed., Egypt under Mubarak, Routledge, London and New York, 1989.

(٢) Mohamed Heikal, The Autumn of Fury: The Assassination of Sadat, Andre Deutsch, London, 1983, p. 74.

وجيه: فبحسب الأسطورة عاش رعمسيس الثاني حتى عمر التاسعة والتسعين، وحكم مصر لستة وستين عاماً من تلك السنين! وأمر بتشييد عدد هائل من المباني الضخمة والتماثيل والمعابد، بما فيها أبو سمبل والرامسيوم. وقد نقل مبارك في ٢٠٠٦ واحداً من تماثيل رعمسيس هذه من إحدى الساحات المركزية إلى المتحف[١].

أعطى النظام الذي أقامه عبد الناصر للجيش دور الجزء الذي لا يتجزّأ من الدولة فتولّى ضباطه المناصب الحكومية والدبلوماسية والأجهزة الاستخبارية والأمنية ووسائل الإعلام التي جرى تأميمها. وألغى الأحزاب السياسية القائمة من قبل ورسّخ الاتحاد العربي الاشتراكي (الذي أعاد السادات تسميته الحزب الوطني الديمقراطي) حكم الحزب الواحد. ولما رفض مئات القضاة الانضمام إلى الحزب طردهم عبدالناصر في عملية باتت تُعرف بمجزرة القضاة[٢].

صُنّفت ديكتاتورية عبد الناصر التي ورثها مبارك بوصفها «التهديد الثلاثي»، أي إنها ديكتاتورية تجمع بين ثلاثة عناصر من ثلاثة أنواع: الشخصانية (حيث تتركز السلطة في شخص واحد)، والجيش، وديكتاتورية الحزب الواحد[٣].

حافظ الجيش على دوره الطليعي في المؤسسات الاجتماعية وفي الاقتصاد، إلا أنه لم يمكن الاعتماد عليه في خدمة مصالح النظام أو قائده فوق مصلحة الشعب لأنه لا يزال جيشاً من المجنّدين. وهو ما أثبت على أنه كعب أخيل مبارك في ثورة ٢٠١١.

بيد أن قوى الأمن الداخلي وجهاز الأمن، وهما الاستخبارات التي يُخشى منها عن حق، بقيت تحت سيطرته المباشرة وقد استخدمها من دون رحمة ضد الأعداء المزعومين أو الفعليين جميعاً. واشتهرت المخابرات المكروهة، التي حُلّت في ١٥

---

(١) Elaasar, Aladdin, The Last Pharaoh: Mubarak and the Uncertain Future of Egypt in the Volatile Mid East, Beacon Press, Montana, 2009, p. 48, 51.

(٢) المصدر السابق، ص. ٢٢ – ٢٣.

(٣) Natasha Ezrow and Erica Frantz, Dictators and Dictatorships: Understanding Authoritarian Regimes and their Leaders, The Continuum International Publishing Group, New York, London, 2011, pp. 20-23,270-273.

آذار/مارس ٢٠١١، بوسائل تعذيبها الوحشية بالمقارنة بتلك التي اعتمدها جهاز أمن الدولة (ستازي) في ألمانيا الشرقية الشيوعية. وأُوقف المواطنون لأتفه الأسباب، بموجب قانون الطوارئ، وتعرّضوا لتحقيقات عنيفة تخلّلتها عمليات التعذيب. وأذكرُ صديقي الراحل، عادل حسين، رئيس تحرير صحيفة «الشعب» المعارضة، الذي تعرّض للتعذيب في أحد السجون المصرية. ولما جاء إلى الولايات المتحدة ودعاه أصدقاء لي إلى العشاء، برزت التأثيرات اللاحقة الطويلة الأمد لتجربته الصادمة. امتلك الأصدقاء كلباً، وبالرغم من كونه جرواً أليفاً جدّاً يهزّ ذيله، انفعل عادل كما لو أنه يشكّل تهديداً قاتلاً. وتبيّن أن السلطات المصرية استخدمت الكلاب لتعذيبه.

حافظ مبارك، مع الحزب الوطني الديمقراطي، على عرف حكم الحزب الواحد الذي أقامه عبدالناصر. وقد سُمح، من الناحية الرسمية، بوجود أحزاب «معارضة» أخرى، لكن تم التلاعب بقوانين الانتخاب إلى درجة تمنع أيّاً منها، أو أي ائتلاف بينها، من تحدّي احتكار الحزب الوطني الديمقراطي للسلطة.أما بالنسبة إلى الانتخابات الرئاسية فلم تظهر إلى الوجود حتى ٢٠٠٥، إذ كان مبارك يسمّي نفسه بوصفه المرشح الوحيد ويدعو الناس إلى «انتخابه» في استفتاء يجري مرّة كل ست سنوات. وفاقت نسبه المئوية دوماً التسعين بالمئة.

وطّد مبارك سلطته الرئاسية على مؤسسات الحقبة الناصرية ليتبّنى بعدها، تدريجاً، البهارج الخارجية التي تليق بحاكم مطلق. تيقن شخصيّاً من عدم تعرّض شخصه أو صورته العامة للتلطيخ من وجهة النظر الصحافية المناوئة فعين بنفسه رؤساء تحرير الصحف اليومية المصرية الرئيسية وأبقى على السيطرة الحكومية على الطباعة والتوزيع[١]. ونصّت بنود في قانون الجزاء وقانون الصحافة على عدم جواز «الحط من كرامة رئيس الدولة»، وطُبقت تطبيقاً شديداً. وأدين سعد الدين إبراهيم من مركز ابن خلدون لدراسات التنمية بتهمة التشهير وحُكم عليه بالسجن سبع سنوات[٢].

سعى مبارك، تماشياً مع حاجات النرجسي ليس إلى درء الانتقاد السلبي وحسب

(١) Elaasar, op. cit., pp. 183-184.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٢-١٩١.

بل أيضاً إلى تمجيد شخصه، وإلى مراكمة المراكز الرسمية والألقاب، الفخرية منها والحقيقية. وحاز أكثر من حصته منها. فهو رئيس الحزب الوطني الديمقراطي، والقائد الأعلى للقوات المسلحة والحاكم العسكري، ورئيس قمة مجموعة الدول الـ١٥، ورئيس القمة العربية، ورئيس منظمة الوحدة الإفريقية، والأمين العام لحركة عدم الانحياز، وغيرها[١]. وفاقته زوجته سوزان في تجميع الألقاب وكلّها تتعلّق بانخراطها الظاهري في البرامج الاجتماعية، وللائحة وقعها في النفس: راعية لسلسلة الأطفال التلفزيونية، «عالم سمسم»، وهي النسخة المصرية لـ«سيسامي ستريت» Sesame Street». وهي «الرئيسة الفخرية لنوادي الروتاري في مصر... ومؤسِّسة ورئيسة الجمعية المصرية للطفولة والتنمية البشرية، والمبادِرة ومؤسِّسة مركز توثيق وبحوث أدب الأطفال، ومؤسِّسة متحف التاريخ الوطني للأطفال، ورئيسة المجلس الاستشاري للمجلس القومي للطفولة والأمومة، ورئيسة اللجنة المصرية القومية للمرأة ورئيسة المؤتمر القومي الأول والثاني للمرأة، وصاحبة المبادرة في القانون الموحد للطفل، ورئيسة القسم المصري للمجلس الدولي لكتب الشباب، ورئيسة الجمعية المصرية للهلال الأحمر وصاحبة المبادرة في الحملة القومية للنقل الآمن للدم، ونائبة رئيس الكومست COMEST، ورئيسة المجلس القومي للمرأة، وهذا غيض من فيض». ويُستخدم الكثير من هذه الألقاب الفخرية في الواقع لتغطية النشاطات التي تبغي الربح المادي والتي ساهمت في مضاعفة المقتنيات المالية الهائلة لمبارك وعشيرته. ويُقدّر أن السيدة مبارك استحصلت على خمسة مليارات دولار في السنة من خلال مثل هذه الأنشطة الخيرية[٢]. واتُهمت السيدة مبارك في ٢٠١١ بالإثراء غير المشروع من خلال الاستيلاء على أموال الدولة، وتنازلت عن أموال وعقارات بقيمة ٢،٨ مليون يورو لتحصل بذلك على إخلاء سبيل موقت.

سارعت السلطات، في إثر سقوط مبارك، إلى إزالة الإشارات التذكارية له ولزوجته من الأماكن العامة. وجاء في موقع الهيئة العامة للاستعلامات التابعة للدولة المصرية على الإنترنت في ٢٢ نيسان/أبريل، أن محكمة القضايا المستعجلة في

(١) المصدر السابق، ص. ٣٠٤.

(٢) المصدر السابق، ص. ٣٠٦.

القاهرة اتخذت قراراً يقضي «بإزالة اسميهما عن كل المنشآت العامة والساحات والشوارع والمكتبات».

يبقى ما بلغه حسني مبارك وزوجته سوزان وابناهما علاء وجمال من ثروة سؤالاً مفتوحاً، أقله إلى أن تتمكّن سلطات ما بعد حكومة مبارك من إكمال تحقيقاتها. وتنقل التقارير الصحافية عن مصادر موثوق بها تقديراتها لحجم ثروة عشيرة مبارك. واحتسبت «إي. بي.سي. نيوز» في الثاني من شباط/فبراير، ومبارك لا يزال رسميّاً في السلطة، أن أصول عائلته تراوح ما بين ٤٠ ملياراً و٧٠ مليار دولار. ويأتي معظم هذا المال من أعمال مشتركة مع شركاء خارجيين يُضمن فيها للشريك المصري نسبة ٥١ بالمئة. أضف إلى هذا كله الأموال التي تُختلس من برامج المساعدات الخارجية والهبات الخ. ناهيك ربما بالمليار ونصف المليار دولار اللذين تحصل عليهما مصر كـ«مساعدة» من الولايات المتحدة. وقيل أن آل مبارك يملكون عقارات في نيويورك ولوس أنجلس ولندن إلى جانب البحر الأحمر[١].

رحّبت القاهرة بإعلان الولايات المتحدة والسلطات الأوروبية بأنها ستجمّد حسابات عائلة مبارك في الخارج وتصادرها، سوى أن قوى الثورة أصرّت أيضاً على رفع قضايا قانونية ضد زعماء النظام السابق.وَفي العاشر من نيسان/أبريل «طلب» المدعي العام «وأصرّ» على أن يخضع مبارك وابناه للاستجواب في ما يتعلّق بالمسؤولية عن قتل مدنيين (قُدروا حتى ذلك الحين بـ ٨٤٦) وبالنشاطات المالية غير المشروعة. والمذهل في الأمر أن مبارك نفى كل شيء. وأعلن، في تسجيل صوتي أُعد مُسبقاً ليُذاع في ذلك اليوم من على شاشة «العربية»، أنه شعر «بالكثير من الألم» بسبب «الحملة الظالمة» عليه، وهي حملة ملأى «بالأكاذيب والتشويهات والتحريض»، وأنه سيدافع عن نفسه حيالها. وتعهّد التعاون التام مع الحكومة والسلطات القضائية «في الطلب من أي حكومة في العالم بالكشف عن أصولي في الخارج منذ أن تولّيت السلطة». وأضاف: «أريد التأكد من معرفة الشعب المصري بأنني أمتلك أصولاً في حساب مصرفي داخل هذا البلد لا غير». ومن شأن الأطباء النفسيين الممارسين تأكيد أن هذا النوع من السلوك شائع بين المصابين باضطراب

(١) ABC News, Feb. 2, 2011, guardian.co.uk, Feb. 4.

الشخصية ممن ضُبطوا في نوع من المسعى الإجرامي. وسيسعون إلى التشبّث بصورة الذات البريئة كوسيلة لتحقيق استقرارهم الداخلي. وقد أصيب مبارك، نتيجة تنحيته عن السلطة، بنوع من الانهيار الداخلي ظهر أيضاً في مؤشّرات المرض الجسدي كما تؤكّد ذلك التقارير عن إقامته في العيادة وعن مشكلاته القلبية.

وقد اتُهم، على المستوى القضائي، باختلاس أموال الدولة وبالإثراء غير المشروع. وبعد ذلك بعشرة أيام وُجهت التهم إليه وإلى ولديه بالمسؤولية عن إصدار الأوامر بقتل المتظاهرين. وتدهورت صحته منذ الأول من حزيران/يونيو كثيراً إلى درجة أن أطباءه أعلنوا أنه غير قادر على مغادرة سرير مستشفاه.

صدمة الطفولة

ليست لحسني مبارك صدمات طفولية مُوثّقة مشابهة لصدمات معمر القذافي، سوى أنه عانى عقد نقص حادة نظراً إلى أن عائلته عاشت في حالة من الفقر المدقع.

يخجل بوالده ولم يتحدّث قط عن عمله حاجباً في محكمة بنها ليكسب أقل من خمسة جنيهات في الشهر. وقد صب مبارك الأب جام غضبه على ابنه وعامله بقساوة شديدة وأخذ يضربه بسبب ومن دون سبب. كما أنه أجبر ابنه على العمل في الحقول مذ كان في السادسة ليضع في جيبه كل ما يجنيه حسني من مال. وبدا أن خجل الرئيس المقبل ببداياته المتواضعة بلغ حدّاً قطع معه أي علاقة بعائلته الكبرى في مسقط رأسه كفر المصيلحة في منطقة دلتا النيل. وهو، على عكس التقليد القائم، لم يزر أياً من أعضاء عائلته الكبرى ولم يعد إلى مسقط رأسه إلا مرة واحدة في ٢٠٠٥ عندما شرع في استكشاف إمكان إجراء استفتاء من أجل مزيد من التمديد لولايته. وشرع أفراد من عائلته الكبرى، منذ إطاحته، في التعبير عن شكاواهم هذه بصراحة فاضحة عبر التلفزيون المصري؛ فحسني لم يعد إلى الديار للمشاركة في المناسبات العائلية المهمة مثل الأفراح أو الأتراح. بل إنه لم يزر قبر والده وهذا واقع يثير التساؤلات عن طريقة تعامله نفسياً مع وفاة أبيه.

وأدى نزوع مبارك، في مدرسة المصيلحة الابتدائية، إلى رواية القصص الخيالية

إلى إكسابه لقب «الكذّاب»، كما دعاه رفقاء صفه أيضاً بـ«السارق». وعُرف في مدرسة بنها الثانوية بـ«حسني الخباصة»، مثير المشاكل الذي بكذبه المزمن أثار الخلافات بين أصدقائه وحرّض على سوء التفاهم. وهذه السمات كلّها نموذجية للنرجسيّ الشاب. ولا عجب أن يخفي مبارك هذه المعلومات كلها عن حداثته وألاّ يُطلع أحداً على مسودة سيرته الذاتية التي أعدتها الهيئة المصرية العامة للاستعلامات.

وقيل أن زوجته سوزان، وموقعها في السلّم الاجتماعي أرفع من موقعه، منعته من القيام بأي زيارات إلى الديار ورفضت دعوة أي من أقارب زوجها الريفيين إلى زفاف ابنهما علاء. كما أن سوزان ثابت، وهي ابنة طبيب مصري وممرضة من ويلز، ارتادت أفضل المدارس في هيليوبوليس حيث أتقنت الإنكليزية. وتابعت دراساتها، بعد زواجها بحسني، وحازت شهادتها الجامعية قبل دخولها المعترك بوصفها السيدة الأولى. وكانت سلفها جيهان السادات هي التي علّمتها أصول التصرّف كسيّدة أولى، وقيل أنها كانت خير تلميذة.

ولطالما شعر حسني مبارك بالحرج في حضور أشخاص من مرتبة اجتماعية أرفع، سواء الأرستقراطيون منهم والأكاديميون. وسعى، بما أنه يتحدّر من عائلة فقيرة، إلى الالتحاق بالجيش. ونجح بجهده واستخدم أوراق اعتماده العسكرية في فتح أبواب السلطة السياسية. سوى أن شخصيته أضحت مدار تساؤل حتى في تلك المرحلة من حياته المهنية. فقد اكتسب، وهو في سلاح الجو، شهرة متسلّق السلّم الاجتماعي. والأخطر من ذلك اتهامه بالخيانة لأنه تجسس على رفقائه وأبلغ رؤساءهم بنشاطاتهم. وتقول بعض الروايات إنه أدين بقبض الرشوة وهو ضابط عسكري، غير أن هذا الاتهام يفتقر إلى الدليل الثابت.

صناعة النرجسي

ورث مبارك مؤسسات ديكتاتورية أدامها على صورته بدلاً من تفكيكها. وشكّلت تلك عملية تدريجية عزّز عبرها عبادة الشخصية التي تليق بالسادات وبعبدالناصر، أو برعمسيس الثاني. وتقول عدّة روايات إن أسلوب زعامته تميّز «بالرزانة»

و«بالعمليّة»[1] أقلّه في خلال سنوات ولايته العشر الأولى. وقد تحاشى في الواقع الجلبة الإعلامية التي استمتع بها السادات وزوجته، بل إنه أمر الصحافة حتى بعدم تغطية أية أخبار عن زوجته أو ابنيه أو نشر صورهم[2].

تغيّر هذا كلّه بصورة جذرية بعد ١٩٩٠ كحدّ كأقصى فعند هذا الحدّ أصبح مبارك منهمكاً كلّياً بذاته ومتصلّباً في إحلال حكم الرجل الواحد والحزب الواحد. وشرع في وضع أمنه الشخصي فوق كل اعتبار آخر، محدّداً ذلك بوصفه المسؤولية الرئيسية الملقاة على عاتق الجيش والحرس الجمهوري. وبات، مثلاً، على المواطنين العاديين إعادة تنظيم خطط تنقّلهم في المدينة طبقاً لخطّ سير الرئيس. فإذا اقتضى الأمر أن ينتقل مبارك من مقرّ إقامته الذي يقع على الطريق المؤدي إلى المطار إلى مكان ما في وسط المدينة، فسيتم وقف كل حركة السير في القاهرة على شعاع يبلغ عشرين كيلومتراً للسماح بالمرور الحرّ لموكب الرئيس الذي يبدو أنه لا ينتهي. وتبقى طرق السيارات المعنية مقفلة لما يصل إلى ساعتين أو ثلاث تسبق مرور موكبه إلى المطار على سبيل المثال. وإذا لم تتمكن المرأة في التاكسي المشرفة على الولادة أو الرجل المصاب بنوبة قلبية من بلوغ المستشفى بسبب قطع الطرق فإنه لأمر يؤسف له لكنه في الأساس غير ذي صلة. وقد تم العمل بممارسة شلّ حركة السير في القاهرة لمرور الرئيس، وقد بُررت رسميّاً بأنها احتراز من الإرهاب، قبل وقت طويل على محاولة اغتيال مبارك في ١٩٩٥ في الخارج.

وتمتعت السيدة الأولى، أينما ذهبت، بمستوى مرتفع مماثل من الأمن. وأذكر، في خلال رحلة لي إلى القاهرة، عندما أردت المرور في المدينة القديمة، أن الحراس المسلحين أوقفوني في مكاني لمدة ساعة. وقد نُشر الجنود على كل مئة متر وتمركز القناصة على كل سطح كما لو أنهم يتوقعون مواجهة مع الإرهابيين الإسلاميين. وتبيّن أن زوجة مبارك، وهي تُعرف شعبيّاً باسم «ماما سوزانا»، في طريقها إلى حفل استقبال تقيمه إحدى الجمعيات النسائية.

تميّز أسلوب مبارك الجديد في الزعامة بالغطرسة المطلقة، وخصوصاً في

---

(١) Tripp and Owen, op. cit. حصل هذا في ١٩٨٩.

(٢) Susan MuaddiDarraj, Hosni Mubarak, Chelsea House Publishers, new York, 2007, p.60.

علاقاته بشعبه، أي بالمواطنين العاديين وهو الذي يُفترض به أن يمثّلهم ويحميهم. وهذا نموذجيّ لدى الشخصية النرجسية. وبدا في خطاباته العامة متنائياً جداً، ونتج ذلك، في جزء منه، من اعتماده الكلّي على القراءة من نص مكتوب. وكما اتضح في خطاباته الأخيرة فإنه تلفّظ بالكلمات من دون أن يعطي أي تلميح إلى وجود اقتناع، ناهيك بانفعال، من ورائها. وتعوّد، في حال اضطر في مناسبة ما إلى التحدّث بحرّية من دون أي نص أو ملاحظات، اعتماد لغة فظّة، إذا لم تكن سوقية، الأمر الذي صدم من يستمعون إليه. وفي أحد خطابات عيد العمل، على سبيل المثال، خرج عن النص الجاهز وانطلق في خطبة مسهبة عنيفة حمل فيها على مواطنيه واتهمهم بأنهم جشعون ويفرطون في الاستهلاك. حرص على تحميل الشعب مشكلات مصر، قائلاً إن سبب تدهور مستويات المعيشة يعود إلى النمو السكاني الذي لا ضوابط له. ومفاد الرسالة أن على المصريين إنجاب عدد أقل من الأولاد. ويدلّ هذا على فقدان التعاطف وعلى احتقار للناس الذين يعتبرهم من الدونيين، وهذا نموذجي لدى النرجسي.

يلقي الكثيرون من الشخصيات السياسية خطاباتهم المُعدّة مسبقاً، وهي في معظم الحالات من وضع كاتب الخطابات وليس المتكلّم. لكن أن يحصل ذلك مع مبارك فلأمر أعظم؛ فمثلاً، عقب خطاب ألقاه في جامعة القاهرة جمع الأوراق وسلّمها بغطرسة إلى مساعده قائلاً: «هذا خطابك فخذه».

شهد من يعرفون الرئيس السابق شخصياً بأنه، بتنميق العبارات، ليس بالمفكّر العميق. ووصفوه بأنه سطحي، مضيفين أنه لطالما واجه مشاكل في القراءة؛ ويعني هذا أن في وسعه القراءة والكتابة، لكنه يواجه صعوبات في قراءة نص والتقاط مغزاه. واجه مشكلة في فهم الأفكار وهو ما يتضح من عدم استعداده للخوض في نقاشات طويلة.

ويتضح هذا عندما يخبره أحد مساعديه بمشكلة طارئة متوقّعاً منه الردّ بالطريقة المناسبة. وعندما أطلعه وزير الري الدكتور محمد نصر الدين علاّم على فحوى النقاشات في المؤتمر الإقليمي لوزراء الريّ، وعلى جدول أعماله مشكلة النيل

المعقّدة، لم يخصص له سوى عشر دقائق من وقته وقال إنه يعتقد بإمكان التعامل مع المسألة «في المستقبل».

ويتّجه في مثل هذه اللقاءات إلى الحديث بمقتضى السلطة نابحاً بالأوامر والأحكام كما لو أنها نازلة من «سلطة عليا» وتشكّل بالتالي تجسيداً للحقيقة. وقال لي أحد المثقفين المصريين، وقد التقى مبارك في مناسبتين، أنه يبدأ المحادثة وسَبّابته مرفوعة وموجّهة على نحو تهديدي إلى محاوره ليطلب إليه فعل هذا الأمر أو ذك. ويفتقر مبارك إلى كاريزما عبد الناصر، ويعتمد بالتالي على إسقاط سلطة مكتبه. وحوّله مثل هذا السلوك إلى شخصية سخيفة وأضحوكة في نظر شعبه. وأحد أشهر ألقابه كان «البقرة الضحوك» الذي استوحي من تشبيهه بالمنتج الفرنسي للحليب ومشتقاته الذي يحمل الاسم نفسه «La vache qui rit».

واشتهر أيضاً بعناده ومشاكسته. ويردّ بعض المحللين السياسيين في مصر رفضه استئناف العلاقات الديبلوماسية مع إيران إلى عناده. كما عُرف عنه القيام، أيضاً من باب العناد المحض، بعكس ما تقترحه الصحافة. وهكذا تعوّد الصحافيون كيل المديح للشخصية السياسية إذا أرادوا التخلّص منها لأنهم تصوّروا أن مبارك سيقوم بالعكس تماماً.

صدمات جماعية

إذا أُعفي مبارك من أي صدمات رئيسية وهو ولد، فإنه حاز بالتأكيد نصيبه منها وهو بالغ. وهذه صدمات جماعية، وليست شخصية، لكنها تركت بصمةً لا تُمحى على شخصيته النرجسية. وجاءت الصدمة الأساسية الأولى في ١٩٦٧ مع الهزيمة المُذلّة في حرب الأيام الستة ضد إسرائيل. وقد صُعق العالم العربي بأسره، وخصوصاً مصر زعيمة العرب في ظل قائدها الكاريزمي عبد الناصر. قدّم عبد الناصر استقالته ولم يبق في السلطة إلا تحت الإلحاح الجماهيري الشديد. وأصبح مبارك، كجزء من إعادة التنظيم التي قام بها عبد الناصر بعد الهزيمة، مدير مدرسة الطيران ورُقّي بعد ذلك بسنتين إلى رئيس أركان سلاح الجو.

شكّلت حرب ١٩٦٧ صدمةً اندمجت في أسطورة المعاناة العربية من القوة الإسرائيلية بما يشبه من بعيد صدمة هزيمة الصرب في ١٣٨٩. وقدّمت حرب تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣ الردّ التعويضي الجماعي الذي لن تتأخر الأسطورة الشعبية في تخليده. وشكّلت حرب ١٩٧٣، التي استردّت مصر من خلالها سيناء، هديّةً سياسيةً للسادات، ولمبارك، وشكّلت المادة التي ستُمكّن من حياكة نسيج البطولة. وكان أداء مبارك بوصفه قائداً لسلاح الجو جيداً وهو ما أدى إلى ترقيته في ١٩٧٤ إلى رتبة فريق طيّار في سلاح الجوّ المصري.

لكن إذا قرأ المرء أمور حرب ١٩٧٣ من وجهة نظر مبارك، فسيعلم أن الغارة الجوية الأولى التي شُنّت في السادس من تشرين الأول/أكتوبر هي التي قررت مصير الحرب. فالجنود والمدفعية ووحدات الدبابات واللوجستية وما عداها لم تشكّل، إذا جاز التعبير، إلا دعائم ثانوية على المسرح. فرجال مبارك الذين يوافقونه دوماً في الرأي حيّوه بوصفه «بطل الضربة الجوية»، وهو ما وفّر له أوراق الاعتماد اللازمة للاحتفاظ بالحكم الرئاسي من خلال استفتاءات هزلية تجرى مرّة كل ست سنوات. وظهر أحد وزراء الإعلام عبر التلفزيون الوطني ليعلن أن أداء مبارك البطولي في حرب ١٩٧٣ أكثر من كافٍ للسماح له بالبقاء رئيساً لمدى الحياة. وسيشحذ مبارك مبالغته في كل عام، في الخامس والعشرين من نيسان/أبريل، في ذكرى تحرير سيناء. وتحدّث في ٢٠٠٦، على سبيل المثال، عن «يوم خالد في تاريخ مصر ويوم عظيم للشعب المصري وقواته المسلحة»، وهو اليوم الذي «تم فيه طي الصفحة الحزينة لهزيمة ١٩٦٧، وأنه مع استعادة هذه البقعة العزيزة من أرض مصر، استعيد أيضاً كرامة البلاد وعنفوان أبنائها».

وبدأ، منذ إطاحة مبارك، التشكيك الصريح في أسطورة دوره البطولي الأساسي. وفي ١٩ شباط/فبراير ٢٠١١، أعلن محمد هيكل، مساعد عبد الناصر والعارف ببواطن أمور النظامين اللاحقين، من على شاشة التلفزيون أن وظيفة سلاح الجو في ١٩٧٣ كانت بدرجة كبيرة نفسية، وقضت بتوفير الغطاء للقوات البرية. وإضافةً إلى ذلك وجّهت ابنة رئيس الأركان السابق سعد الدين الشاذلي (الذي توفي في العاشر من

شباط/فبراير، في اليوم الذي استقال فيه مبارك) اتهاماً علنيّاً إلى مبارك بالكذب في شأن الحرب وذلك بغية تعظيم شأنه. ونقلت عنها «المصري اليوم» في ٢٦ شباط/ فبراير ٢٠١١، اتهامها مبارك بأنه قام حتى بتزييف صور وغيرها من الوثائق لتعزيز دوره في حرب ١٩٧٣ في مقابل دور والدها. وقالت إنها تنوي اتخاذ الإجراءات القانونية حيال ذلك[١]. ومثل هذا الكذب لمصلحة تعظيم الذات نموذجي في الشخصية النرجسية.

شرع السادات، بعد سنوات ليست بالكثيرة على حرب ١٩٧٣ التي ردّت الاعتبار لصورة مصر، في رحلة لا عودة منها: زيارته التاريخية للقدس وخطابه الذي دعا فيه إلى السلام، وما أعقب ذلك من اتفاقات كامب ديفيد التي وُقّعت في ١٧ أيلول/ سبتمبر ١٩٧٨ في واشنطن مع الرئيس جيمي كارتر. وأدى ذلك إلى إخراج مصر من جامعة الدول العربية ووضع السادات على لائحة المطلوب تصفيتهم. وشكّل اغتياله في ١٩٨١ حدثاً إضافياً صادماً اختبره مبارك عن قرب. وأثارت أخبار الصحافة المصرية، منذ سقوط مبارك في العاشر من شباط/فبراير، فرضيات مفادها أن مبارك قد يكون ضالعاً في خطط لاغتيال السادات، أو مطّلعاً عليها، وهو أمر كان لا يمكن التفكير في إثارته في ظل النظام السابق. وسواء صح ذلك أم لا، فالواقع هو أن مبارك استغل اغتيال السادات كذريعة لإعادة العمل بقانون الطوارئ الكريه الذي طالب متظاهرو ميدان التحرير بإلغائه.

أكسب كامب ديفيد مصر أيضاً دفقاً ثابتاً من المساعدة المالية الأميركية بما يصل إلى ١,٥ أو ملياري دولار في السنة. وقد تكون موافقة مبارك على الانضمام إلى الحرب التي قادتها المملكة المتحدة والولايات المتحدة على العراق في ١٩٩١ مرتبطةً إلى حدّ كبير بوعد الولايات المتحدة وأوروبا ودول الخليج بمكافأته من خلال مسامحته بدين ضخم بقيمة ٢٠ مليار دولار كعربون شكر على دعمه. واعتُبر نتيجة ذلك، على غرار السادات من قبله، بوصفه خادم المصالح الأميركية. ولن

(١) http://www.almasry-alyoum.com/article2.aspx?ArticleID=288933&IssueID=2058 وقد استُشهد بها في http://en.wikipedia.org/wiki/Hosni_Mubarak

يؤدي مسلكه حيال الفلسطينيين بعد ٢٠٠٠ إلا إلى تأكيد وجهة النظر هذه. فهو لم يكتف بدعم الحظر المفروض على غزّة عقب انتخابات ٢٠٠٦ التي جاءت بحماس إلى السلطة، بل شرع أيضاً في بناء جدار تحت الأرض بغية إقفال الأنفاق المؤدية إلى غزّة. وقد أُبلغ في أواخر ٢٠٠٨، في إبان زيارة وزيرة الخارجية الإسرائيلية يومئذ تسيبي ليفني، بخطط إسرائيل شنّ الحرب على غزّة. وأكدت تقارير سرّبتها «ويكيليكس» لاحقاً أنه لم يكتف بالموافقة على الهجوم بل حثّ عليه.

ومع ذلك، أدام مبارك خرافة أن مصر تشكّل الحليف الثابت للفلسطينيين في سعيهم إلى الدولة المستقلة والسلام. والخرافة الأخيرة التي نشرها هي أنه سيبقى رئيساً لمدى الحياة، وأن تلك الحياة قد لا تنتهي أبداً. وهاكم إحدى النكات الشعبية المنتشرة في شأنه: استدعى الله منذ بضع سنوات الرئيس الأميركي كلينتون والرئيس الروسي بوتين والرئيس المصري مبارك، ونقل إليهم رسالة مفادها أن العالم سينتهي بعد يومين. ظهر كلينتون على التلفزيون الوطني ليعلن أنه يحمل نبأين أحدهما طيّب والآخر سيّئ. والنبأ الطيب، أوّلاً، هو أن الله موجود بالفعل، أما النبأ السيّئ فهو أن العالم سينتهي في غضون أيام. وتوجه بوتين إلى مواطنيه قائلاً إنه يحمل نبأين سيّئين: الأول هو أن الله موجود ما يعني أن البناء العقائدي الماركسي ـ اللينيني برمّته سينهار، والثاني هو أن العالم سينتهي قريباً. وتحدّث مبارك إلى شعبه بنبرة مبتهجة ناقلاً إليه تطوّرين إيجابيين: الأول هو أنه أنهى تواً اجتماعاً ناجحاً مع الله، والثاني هو أنه أيقن أنه سيبقى زعيماً على مصر حتى نهاية الأزمنة.

الفصل الرابع

بن علي – كلّ شيء ضمن العائلة

يمكن أحياناً لصوت الشعب –Voxpopuli– أن يشكّل دليلاً قيّماً على تفسير الأحداث الاجتماعية. فقد نقل عمر بن حميدة، الذي كان في تونس في إبان ثورة الياسمين ووضع كتاباً صغيراً عن تجربته، فحوى نقاش أجراه مع سائق التاكسي بعيد إلقاء زين العابدين بن علي خطابه الأخير وهروبه من البلاد. قال السائق: «الحق يقال، لم يكن بن علي على هذا القدر من السوء الذي يتحدّث عنه الناس اليوم. غير أن بطانته، وخصوصاً زوجته، قد سحرتاه. امتلكتا تأثيراً سيّئاً فيه». ومضى ملاحظاً أن الذين احتفلوا بسقوطه هم أنفسهم الذين هللوا له حين قام بانقلابه في ١٩٨٧، معجبين بانقلابه الأبيض وبدعمه للدستور. وتابع: «أقول لك، الرجل ضحية حاشيته.... لقد أصغى إلى تلك المرأة الأفعى لوقت طويل جدّاً!»[١].

ما من شك في أن الشخصية النرجسية الرائدة في حالة تونس ليست الرجل الجالس على عرش الرئاسة، بل السيّدة في مخدعها مهما تميزت علاقتهما بالدينامية في البداية. ومن شأن أي مراقب ثاقب البصيرة، رأى صور المرأة أو شاهد أياً من إطلالاتها التلفزيونية، أن يشتبه في أن للسيدة الجذابة ذات المسلك المتعجرف صورة

(١) Ben Hamida, Amor, Chronik einer Revolution: Wie ein Gemüsehändler einen Präesidenten stuerzt, Books on Demand GmbH, Norderstedt, 2001, pp. 50-51.

مبالغاً فيها عن نفسها، وربما نرجسية. وتماماً كما كانت «خدعة مظلة» القذافي مؤشّراً إلى اللحظة النفسية، شكّلت زيارة ليلى إلى المصرف المركزي التونسي لسحب مصروفها للانتقال إلى المنفى تلميحاً واضحاً إلى إمكان تشخيص المرأة بأنها كائن مصاب باضطراب نرجسيّ خطير في الشخصية.

ومفاد القصة، التي نُشرت أوّلاً في «آخر أخبار الجزائر» *DNA* في ١٤ كانون الثاني/يناير والتقطها التلفزيون الفرنسي والصحافة، أن ليلى سارت بخيلاء في أحد الأيام إلى البنك المركزي التونسي وطلبت طنّاً ونصف الطنّ من سبائك الذهب، وقيمتها خمسة مليارات دولار. وذكرت صحيفة «لوموند» في ١٧ كانون الثاني/يناير أن المعلومات التي امتلكتها الاستخبارات الفرنسية جاءت من مصدر قريب من البنك المركزي. ولمّا رفض حاكم البنك التسليم من دون أمر خطّي، مضت ليلى إلى زوجها الذي وافق أخيراً بعد معارضة.

نفى المدير العام للبنك رسميّاً الرواية. وأحد التفسيرات للتضارب في الروايات التي أوحت بها الاستخبارات الفرنسية هو أن السيدة الأولى قامت في الحقيقة بالعملية في كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٠ وليس في كانون الثاني/يناير، ونقلت يومئذ الذهب إلى خارج البلاد في سويسرا. وكشفت «آخر أخبار الجزائر» عن الرواية في يوم فرارهما من تونس إلى السعودية حيث أقاما في القصر السابق للملك فهد[1].

تحمل ليلى بن علي طرابلسي، التي حلّت عليها الآن اللعنة العلنية بوصفها المرأة الأكثر كرهاً في تونس وأطلق عليها كتاب عن النظام لقب «وصيّة العرش»، مؤشرات السيرة الذاتية النموذجية للنرجسي: فقد وُلدت في ١٩٥٧ في عائلة فقيرة جدّاً من ١١ ولداً. امتلك والدها متجراً يبيع السلع التي يهديها الشبان إلى خطيباتهم مثل الفاكهة المجففة والحِنّاء والحلوى والجوز. توفي الوالد في ١٩٧٠ واضطُرّت أمها المسكينة إلى العمل لبعض الوقت في أحد الحمّامات العامة. وحالت الرقابة التي سادت عهد بن علي دون إصدار المطبوعات تفاصيل تتعلّق بطفولتها، والحقيقة الوحيدة المؤكدة التي سُمح للصحافة بنشرها هي أنها أصبحت مصفّفة للشعر. غير أن هذه الرواية قد لا

(١) http://dna-algerie.com/international/1164-les-lingots-de-leila-trabelsi-les-5-milliards-de-dollars-de-ben-ali-main-basse-sur-les-richesses-de-la-tunisie.html

تكون صحيحة.إذ تبيّن أن لليلى صديقة جيّدة تمتلك صالوناً لتصفيف الشعر تحمل أيضاً اسم ليلى طرابلسي، وهكذا نشأ الالتباس. ونقل «صوت الشعب»، في شخص سائق التاكسي التونسي، رواية مفادها أنها تورّطت في قضية مخدرات خلّصها منها بن علي[١].

ترسم الوقائع المنشورة عن علاقتها ببن علي صورةً واضحةً عن حالة سريرية من النرجسية المزدوجة. التقيا في فترة ما من فترات الثمانينيات في وقت تم فيه استيعاب بن علي، الذي درس في المؤسسات العسكرية والاستخبارية في فرنسا والولايات المتحدة، استيعاباً كاملاً في الجهاز العسكري/الاستخباري. وتولى منصب المدير العام للأمن القومي من ١٩٧٧ إلى ١٩٨٠، ووزير الدولة لشؤون الدفاع الوطني (١٩٨٤)، وانتقل ليصبح وزيراً للداخلية (١٩٨٦) ورئيساً للوزراء (١٩٨٧). أرسل بن علي سفيراً إلى بولندا في ١٩٨٠ وعاد منها في ١٩٨٤. لا بدّ أن لقاءهما، بالرغم من عدم اتضاح تواريخه الدقيقة، حصل قبل ١٩٨٦ عندما وُلدت طفلتهما الأولى نسرين من خارج روابط الزوجية. وكان بن علي متزوجاً عندئذ نعيمة الكافي ابنة الجنرال محمد الكافي الذي رعى مهنة بن علي، ووالدة بناته الثلاث. وقد احتفظ بليلى خليلةً له في فيلا مجاورة وترك زوجته بعدما أصبح رئيساً في ١٩٨٧. تزوّج ليلى في ١٩٩٢ وهي السنة التي وُلدت فيها ابنته الثانية حليمة. وولد ابنهما الأول في ٢٠٠٥ وقرّرا أن يصبح الوارث السلالي لوالده كما يشير إلى ذلك اسمه، محمد زين العابدين بن علي. وأطلق عليه «صوت الشعب» اسم «وليّ العهد»[٢].

ينطبق الأدب السريري على العلاقة بين بن علي وليلى حيث يمثّل الجمال والشهرة دوراً في اختيار الشريك. وكتب كرنبرغ: «يمكن لعملية مَثلنة idealization المحبة، عندما تقع الشخصية النرجسية في الحب، أن تُركزّ على الجمال المادي كمصدر للإعجاب» – كما في حالة ليلى – «أو على السلطة، والثروة أو الشهرة

(١) وردت بيانات سيرة الحياة في Beau, Nicolas et Catherine Graciet, La Régente de Carthage: Main Bassesur la Tunisie, La Decouverte, Paris, 2009, p. 38, and Ben Chrouda, Lotfi avec la collaboration de Isabelle SoaresBoumalala, Dansl'ombre de la reine, Editions Michel LaFon, Neuilly-dsur-SeineCedex, 2011, pp. 20, 22, 25.

(٢) Beau, Ibid., p. 52.

بوصفها (كما مع بن علي) من السمات التي تشكّل مصدراً للإعجاب وتُدمج في شكل لا واعٍ في الذات بوصفها أجزاء منها»[1].

بيد أن الأمر، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، ليس مجرّد لقاء بين نرجسيين، لأن واحداً منهما كان متزوّجاً بالفعل. ويتحدّث المحللون النفسيون عن تطوّر مثل هذه العلاقة بعبارات «التثليث العكسي». والرجل في هذا المثال الجدير بالدراسة «ناجح، على نحو قياسي، في محيط اجتماعي، ثقافي، أو مهني معيّن، ومتزوّج امرأة يُعترف عموماً بأنها مثالية وهو ما يقرّ به زوجها». وزوجة بن علي الأولى هي في الواقع ابنة جنرال وذات مكانة اجتماعية جيدة. «وربما وُجد أطفال وتميّز موقف الوالدين حيالهم بالرعاية والمسؤولية»، وهذه هي الحال في الواقع إذ رُزق الزوجان ثلاث بنات. لكن «كانت للرجل أيضاً عشيقة، هي في العادة من بيئة اجتماعية، ثقافية، أو مهنية مختلفة» – وليست ليلى في الواقع إلا مجرّد مصفّفة للشعر. ويفيد المحلل النفسي أن «الامرأتين تعرف كلاهما الأخرى ويبدو أنهما تعانيان هذا الوضع». ويتطابق هذا مع وضعهما تطابقاً كبيراً. وأقامت الامرأتان، كلتاهما، لفترة في أحد أجنحة قصر قرطاج؛ «والفترة التي وجدت الامرأتان نفسيهما وهما جارتان تتقاسمان وجود الريّس فترة رهيبة. فنعيمة امرأة مثقفة... وتألّمت جداً من هذا الوضع». وتحاربت الامرأتان على مسائل مثل تنظيم المطبخ، وذُكر أن ليلى عانت غيرة زوجة بن علي الأولى[2].

يتضح أن مثل هذا الترتيب يخلق إشكالاً للرجل، كما كانت الحال بالنسبة إلى

(١) Kernberg, Otto F. M.D. , Love Relations: Normality and Pathology, Yale University Press, New Haven and London, 1995, p. 144. تؤدي الشخصية النرجسية في معظم الأحيان دور الأنا المريضة العظمى وهي تُسقط جزءاً من الأنا على الشريك الذي يؤكّد إعجابه اللامتناهي بهذه الأنا العظمى. وفي حالات أقل تكراراً تُسقط الشخصية النرجسية الأنا المريضة العظمى على الشريك وتمثّل علاقة بين هذه الأنا العظمى وبين انعكاسها المُسقط. وليس الشريك في مثل هذه الحالات إلا وسيلة لعلاقة بين أوجه الأنا. وفي العادة يشكّل الشريك المثالي و"الملحق" أو التابع لهذا المثال الزوجين في تمثيلهما أو خيالهما، أو أنهما يشكلان "انعكاساً" يكون فيه كل من الشريكين تكراراً للآخر. ويمكنهما أيضاً، بتكملة أحدهما الآخر، أن يعيدا معاً تشكيل الوحدة المثالية العظمى التي فُقدت أو يتم الحلم بها" (ص. ١٥٠ – ١٥١).

(٢) Ben Chrouda, Op. cit., pp. 29-30.

بن علي. وهناك، على ما يلاحظه المحللون النفسيون، «احتمالات متعددة للإحراج العام إذ إن تورّط الرجل مع الامرأتين يؤثّر في حياته العملية والمهنية والاجتماعية أو السياسية. ويبدو الرجل نفسه غير سعيد وذاهلاً، يترجّح بين انقطاعه لامرأة أو للأخرى»[١].

وقد يعمد المرء في حالات كهذه إلى إسقاط صورة «السيّدة ـ المومس» على شريكتيه. وهذه «ثنائية نموذجية من المراهقة الذكورية» قد تستمرّ في فترة البلوغ حتى سنّ متقدّمة، وقد تتعزّز ثقافيّاً في المجتمعات الأبوية التي تتسامح مع مثل هذه «الأخلاقية المزدوجة» بل حتى تشجّع عليها[٢]. ويرى الخبراء أن صورة «السيدة ـ المومس» هذه تعكس الصورة المجزّأة للمرأة، تُقبل بموجب إحداهما اجتماعيّاً فيما تُصنّفها الأخرى كمومس. وخلقت هذه الصورة، التي أُسقطت سابقاً على الامرأتين - زوجته وليلى على التوالي ـ، نزاعاً داخليّاً لدى الشريك الذكر. وتغلّب بن علي على هذا النزاع بتشريع علاقته وجلبه ليلى إلى القصر بوصفها الزوجة التي اقترن بها قانوناً.

ينسجم هذا مع نظرة «صوت الشعب» إلى علاقتهما. فلطالما اعتبر الشعب التونسي ليلى أنها من مكانة اجتماعية أدنى من مكانة زوجها وأنها امرأة حاولت التعويض عن ذلك بتحصيلها شهادة البكالوريا إضافةً إلى شهادة جامعية، وكلتاهما بالمراسلة. ويبقى تحصيلها أو عدم تحصيلها لهاتين الشهادتين مسألةً خاضعةً للنقاش الحامي.

«الشركة التونسية»

سيتكشّف في النهاية وبمزيد من التفصيل المدى الذي تلاعبت فيه ليلى بن علي طرابلسي في الواقع بزوجها وأضحت القوة الحقيقية وراء شبكة المؤسسات الاقتصادية والمالية والسياسية والاجتماعية الضخمة الفاسدة، مع تجلّي حقبة ما بعد

---

(١) Kernberg, Op. cit., pp. 159-160.

(٢) المصدر السابق، ص ١٥٤.

الثورة. والمؤكد، بالإضافة إلى الدراسات القليلة التي نُشرت عن عشيرة بن علي/ طرابلسي، وأكثرها في خارج البلاد لتفادي الرقابة، أن التحقيقات الرسمية ستعطي صورة أكثر دقة عن كيفية إدارة «الشركة التونسية» – وهي في الأساس مؤسسة عائلية – البلاد بأسرها بوصفها عملية ابتزاز جنت الأرباح[1].

ما من شك في أن ليلى بن علي مثّلت قوة دافعة – إذا لم تكن القوة الدافعة – وراء هذا التكتّل. لكن لا يمكن سوى التكهّن بالنسبة إلى متى أصبح نفوذها حاسماً. ويقسم المؤرّخون في العادة رئاسة بن علي إلى ثلاث مراحل، من السنوات الأولى بعد انقلاب ١٩٨٧، عندما أدخل الإصلاحات السياسية والاقتصادية، مروراً بمرحلة التسعينيات عندما قمع بوحشية المعارضة الإسلامية الداخلية ووسّع الليبرالية الاقتصادية، إلى الألفية الجديدة عندما أعاد رسميّاً الرئاسة لمدى الحياة وعزّز السلطة من خلال الحزب ـ الدولة الذي حوّل الحكم إلى دولة بوليسية[2].

المرحلة الأولى: الانقلاب

حصل الانقلاب الأبيض في السابع من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٧ عندما توجّه بن علي برفقة فريق من الأطباء الذين يرتدون برانسهم الطبية البيضاء إلى القصر الرئاسي ليعلن للرئيس الخرف الحبيب بورقيبة، ٨٦ عاماً، أنهم سيواكبونه إلى خارج السلطة نظراً إلى عجزه الجسماني/الذهني. وأعلن بن علي في أول خطاب رسمي له بعد الانقلاب أن رئيس الوزراء سيتولى السلطة موقتاً، بحسب ما ينصّ عليه الدستور، وهو ما حصل بالفعل. وتعهّد أيضاً بإصلاحات بعيدة المدى، والأهمّ من ذلك بإلغاء الرئاسة مدى الحياة. «لم يعد العصر الذي نعيش فيه يسمح بالرئاسة لمدى الحياة ولا بالخلافة التلقائية على رأس الدولة التي يُستبعد منها الشعب. يستحقّ شعبنا الحياة السياسية المتطوّرة والممأسسة التي ترتكز على تعدّد الأحزاب والتعدّدية»[3].

(١) Beau, Nicolas, Op. cit.

(٢) Erdle, Steffen, Ben Ali's 'New Tunisia' (1987-2009): A Case Study of Authoritarian Modernization in the Arab World, Klaus Schwarz Verlag, Berlin, 2010.

(٣) كما وردت في Erdle, Ibid., pp. 94-95.

وأعقبت الأفعالُ الوعود وسُنّ قانون في السنة التالية وضع الأسس القانونية لنظام متعدّد الأحزاب مع تشريع وضعها القانوني، وخففت قوانين الصحافة من القيود السابقة. وألغى تعديل دستوري في ١٩٨٨ رسميّاً الرئاسة لمدى الحياة، فاقتصرت ولاية رئيس الدولة على ثلاث ولايات من سبع سنوات لكل منها وحدّدت بسبعين سنة السنّ القانونية للبقاء في المنصب[١].

أدخل بن علي، في الوقت نفسه، عدداً كبيراً من الإصلاحات الاقتصادية أدت إلى تحرير جذري للاقتصاد، بما في ذلك خفض قيمة العملة، وخفض تعرفات الاستيراد وتسهيل الصادرات عبر الاقتطاع الضريبي والتخفيف من ضبط الأسعار ومن أسعار الصرف[٢]. وتلك هي آليات الإصلاح التي ستفتح الاقتصاد أمام عملية نهب بالجملة تقوم بها المصالح الأجنبية بالتعاون الوثيق مع المافيات المحلّية.

تستحقّ الطريقة التي حصل فيها الانقلاب الأبيض المزيد من التفحّص عن كثب لكونه ليس بالتطور التونسي الداخلي المحض. بل على العكس تم التفكير في العملية كلّها والتخطيط لها وتنفيذها على أيدي جهات خارجية، وعلى وجه الدقة الاستخبارات الإيطالية، وهذه حقيقة ستكون لها تداعيات بعيدة المدى بالنسبة إلى استقلال القرار التونسي النسبي. وبقيت القصة الخفية للانقلاب سرّاً حتى ١٩٩٩ عندما قام فولفيو مارتيني، الرئيس السابق وعلى مدى سبع سنوات للاستخبارات العسكرية الإيطالية وقد خدم في عهد حكومات كل من بتينو كراكسي وأمينتوري فانفاني وجيوفاني غوريا وجوليو أندريوتي، بالكشف عن معلومات داخلية في جلسات الاستماع في البرلمان الإيطالي. وهذه الجلسات التي عقدتها لجنة المجازر التي حقّقت في حوادث إرهابية مختلفة نزلت بإيطاليا، استمعت على سبيل المثال إلى شهادة عن عملية اختطاف رئيس الوزراء ألدو مورو في ١٩٧٨ وقتله على يد الألوية الحمراء.

اقترح مارتيني في السياق مواصلة شهادته وراء أبواب مغلقة، وظهرت إلى العلن،

(١) Erdle, p. 99.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٢.

في ظل تلك الظروف، حقيقة انقلاب بن علي. وشهد قائلاً: «نظّمنا، في سنوات ما بين ١٩٨٥ و١٩٨٧، نوعاً من الانقلاب في تونس ووضعنا بن علي في سُدّة الرئاسة واستبدلنا بورقيبة الذي أراد الرحيل». وحدّد ظهور الأصولية الإسلامية في الجزائر الإطار السياسي للعملية إذ خشي الإيطاليون إمكان بلوغ هذه الأصولية تونس.وتوقّعوا أن يردّ عليها بورقيبة بقمع عنيف تخوّفوا من أن يؤدّي إلى عواقب سلبيّة في البلاد وفي الدول المجاورة. وخشي الإيطاليون من أن أي ضرب للاستقرار في الجزائر و/أو تونس سيؤثّر سلباً في خط الغاز الذي ينطلق من الجزائر إلى إيطاليا مروراً بتونس. وفي آب/أغسطس ١٩٨٣، وبناءً على أوامر من كراكسي ووزير الخارجية جوليو أندريوتي، أصدر مارتيني تعليمات إلى «جماعته» في تونس. وأفاد لاحقاً، «نجحنا في إبرام صفقة أولية حول نقاط الاختلاف الرئيسية، لنقترح من بعدها حلاًّ يرضي الجميع تمت الموافقة عليه، ثم حصلت خلافة بورقيبة عبر عملية انتقال هادئة وسلمية للسلطة»[1]. وطار كراكسي نفسه، في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٤، إلى الجزائر العاصمة وحثّ الجزائريين على الصبر. وأخذ في غضون ذلك يخطط مع حكومته للانقلاب على بورقيبة الذي حصل في ١٩٨٧.

المرحلة الثانية

تميّزت مرحلة بن علي الثانية بالتحوّل إلى القمع السياسي. حصل ذلك في البداية ردّاً على مكاسب الإسلاميين الانتخابية في ١٩٨٩ التي بلغت ١٣ بالمئة الأمر الذي هزّ المؤسسة السياسية، وهي صدمة عزّزتها مكاسب الإسلاميين (جبهة الإنقاذ الإسلامية) في الجزائر في انتخابات ١٩٩٠ وما أعقبها من حرب أهلية دامية. وردّ بن علي بقمع وحشي لإسلاميه الداخليين ما أدى في ١٩٩٢ إلى نفي مجموعة «النهضة» المعارضة. وبعدما سحق بن علي ما اعتبره تهديداً فاز بانتخابات ١٩٩٤ الرئاسية بهامش ٩٩,٤٤ بالمئة.وما له دلالته أنه خاطر بشرعيته السياسية برمّتها على وعود بالنمو الاقتصادي، الأمر الذي شكّل اعترافاً أخرق بالمطالب الإسلامية:

(١) Chianura, Carlo, "L'Italiadietroilgolpe in Tunisia" – L'ammiraglio Martini: Craxi e Andreottior-dinarono al Sismi di agire, La Repubblica, 10 ottobre 1999.

إيجاد فرص العمل، الاستثمار الأجنبي، تطوير البنى التحتية، إلى جانب المزيد من الحرّيات السياسية[1].

سوى أن النظام، وبدلاً من الوفاء بهذه التعهّدات، استغلّ ردّة الفعل العالمية على هجمات ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ في الولايات المتحدة لممارسة السيطرة السياسية من فوق. وما إن انقضى أسبوعان وحسب على ضرب البرجين التوأمين حتى «دعا» حزب «التجمع الدستوري الديمقراطي» الحاكم بن علي إلى إعلان ترشحه لإعادة انتخابه بالرغم من أن القانون لا يُجيز له الترشح.

المرحلة الثالثة

أعاد بن علي رسميّاً، في المرحلة الثالثة، العمل بالرئاسة لمدى الحياة من خلال استفتاء أجراه في أيار/مايو ٢٠٠٢ ألغى فيه العوائق الدستورية أمام ترشيحه ومدد حدّ السنّ القانونية إلى ٧٥ عاماً[2]. وعزّز بن علي، في هذه الفترة نفسها، حكم الشخص الواحد وبنية الحزب-الدولة. وحكم بوصفه «رئيس الدولة، رئيس الحكومة، ورئيس مجلس الدولة، ... رئيس الحزب الحاكم، القائد الأعلى للقوات المسلحة، ورئيس الجهاز القضائي إضافة إلى رئاسة المجلس الدستوري. وبات القصر الرئاسي بمنزلة مركز القيادة والتحكّم في البلاد، ومنه اتخذ رئيس الدولة القرارات الكبرى كافة»[3].

أخذ وجه ليلى بن علي طرابلسي يبرز باطراد في القصر وهو مقرّ القيادة لكل عملية اتخاذ القرار. وبدا، في المرحلة الأولى، أنها لم تمارس أي دور على الإطلاق بالرغم من كونها عشيقة بن علي، وهو ما تناسب مع تقديمه لنفسه كربّ أسرة تقليدية مع زوجته وبناته. ولم يتحوّل من مصلح مزعوم إلى متسلّط يزيد من سيطرته الرئاسية إلا بعد انفصاله عن امرأته وزواجه (في ١٩٩٢) بليلى. ولا يعني هذا الإيحاء ارتباطاً عرضياً بين الأمرين، بل مجرّد إشارة إلى أن بن علي، الذي صوّر نفسه إصلاحيّاً

(١) Erdle, Op. cit., p. 120. وبحسب بو وغراسييه فإن نسبة الأصوات التي حصل عليها الإسلاميون قد تصل إلى ٣٠ بالمئة. المصدر السابق، ص ٢٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٤.

(٣) المصدر السابق، ص ١٣٦.

وابتعد نسبيّاً عن الأضواء في سنوات رئاسته الأولى، بدا وكأنه يخضع لعملية تحوّل في شخصيته في الوقت نفسه الذي دخلت فيه حياته الخاصة مرحلةً جديدة. بل إنه كان في الواقع، في سنواته الأولى، شخصيةً متواضعةً لم يسع إلى الدعاية ولم يقم إلا بإطلالات عامة نادرة.

تميّزت ليلى بن علي طرابلسي بالعكس تماماً، أقله عقب تحوّلها إلى زوجة شرعية للرئيس. وبات شغلها الشاغل، الأشبه بالهوس، ضمان موقع اقتصادي، سياسي، واجتماعي مأمون، ليس لنفسها وحسب بل لعائلتها أيضاً. بدا كما لو أن الفتاة التي تحدّرت من عائلة فقيرة واختبرت العواقب الاجتماعية السلبية المرتبطة بهذه الخلفية المتواضعة، أخذت على نفسها عهداً ليس ببلوغ موقع بارز وحسب بل بأن تصبح القائد الأعلى، النرجسية بامتياز، وبأن تكون أفضل، وأجمل، وأقوى، وأكثر عرضةً للحسد من أي شخص آخر. وقد عرفت ماذا تفعل تمام المعرفة. وسبق لها في ١٩٧٠ أن قالت لزوجة شقيقها، ناجية جريدية: «سترين يا ناجية أنني سأتزوج أميراً أو ملكاً أو رئيساً. سأبدّل حياتكم، سأشتري لكم البيوت. سترين أنك ستحظين بالخادمات والسائقين!»[١].

بدا أنها تمسك بالسبل لبلوغ غاياتها: «امتلكت أوراقاً رابحة أخرى في لعبتها: الصبر، والحدس، والتلاعب، والسرّ، والدسيسة، والسحر، والإغواء.... فالفتاة، على غرار أمها، انغمست حقّاً في التطيّر والشعوذة والسحر المؤذي والتكهّن»[٢].

تحرّكت ليلى بلا رحمة، مستخدمةً الوسائل المتوافرة كافة، لضمان السلطة على المدى البعيد. وتضمّنت هذه الوسائل السحر الذي أخذته على محمل الجدّ الكبير. وكشف أحد طباخيها في كتاب نُشر بعد الثورة أن الشعائر اليومية قضت بحرق حرباء حيّة في «الكانون». على أن تأمره ليلى بعد ذلك بما يجب فعله بالحرباء من أجل

(١) Ben Chrouda, Op. cit., p. 19.

(٢) Beau, Op. cit., p. 29. أنظر أيضاً Ben Chrouda, Op. cit., p. 40: أمرت ليلى بذبح الخراف عند الشروع في بناء المشاريع، و(ص. ١٢٨) غالباً ما جالت وهي متنكّرة بين المقابر. وحول العلاقات بين السحر في المجتمعات البدائية والعصابية أنظر كتاب فرويد seminal study, Totem and Taboo, Resemblances between the psychic lives of savages and neurotics, Random House, New York, 1918.

الرئيس: «عليك بذبح الحرباء، وبتغطيس إصبعك بدمها، وبرسم دائرة حول كاحل الرئيس، كما لو أنك تصنع خلخالاً، ولكن بهدوء، بهدوء بحيث لا تترك أي فراغ إلى أن تكتمل الدائرة!» وعلّق الطباخ، الذي تلقّى الأوامر أيضاً بشقّ بطن الحرباء بالطول، «عليّ مع ذلك أن ألاحظ أن إرادة الرئيس أخذت تتضاءل شيئاً فشيئاً في كل يوم منذ بدأت ليلى بشعائرها. وأخذت توازنات القوى تنتقل تدريجاً إلى معسكر ليلى التي تظهر في كل مرّة أكثر قوة وسطوة. فليس عندها من أمر مستحيل. وفي المقابل أخذ عجز الرئيس يصبح أكثر بروزاً»[١].

يشكّل هذا النوع من الجنوح إلى السلطة الدافع الأساسي لسلوك الزعيم السياسي الفاسد الذي يظهر عليه في معظم الأحيان جنون العظمة والسمات المعادية للمجتمع. وهو ما أضحت عليه السيّدة التونسية الأولى. فقامت بالاشتراك مع زوجها بتوزيع أقاربها وأقاربه والأصهار كموظفين في الشبكة الواسعة التي تشمل نشاطات الدولة الحيوية كلها والاقتصاد الوطني. وتضم «العائلة الموسّعة»، كما حدّدها ستيفن إردل، آل بن علي وآل طرابلسي إضافة إلى أقاربهم؛ آل طرابلسي، بمعنى ليلى وأخوتها؛ وآل مطري، وهي عائلة نسرين بن علي وزوجها محمد صخر؛ إضافة إلى آل شيبوب ومبروك وزرّوق وقد تزوّج أفراد منهم بنات بن علي من زوجته الأولى. وضمّت الشبكة كلّها نحو ستين عائلة بلغت أعدادها المئات من الأشخاص[٢].

نجحت ليلى في تنظيم الأمور على نحو يندمج فيه أفراد عائلتها الموسّعة جميعاً في شبكة عنكبوتية من المؤسّسات المتداخلة والمترابطة حرفيّاً في شتى جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في تونس. ويُقدّر عدد المؤسسات التونسية التي تخضع مباشرةً للشبكة، والتي تُعرف شعبيّاً باسم «العائلة» أو «المافيا»، بأكثر من ٥٠ بالمئة. سيطرت العائلة على شركات الطيران والعقارات والأراضي والنقل والاتصالات والبنوك والسياحة ووكالات بيع السيارات ووسائل الإعلام والزراعة والصناعة الغذائية والتوزيع بالمفرّق والشركات التي تزوّد بخدمات الإنترنت وإلى ما

(١) Ben Chrouda, pp. 15-18.

(٢) Kernberg, Otto F., Ideologie, Konflikt und Führung: Psychoanalyse von Gruppenprozessen und Persönlichkeitsstruktur, Klett-Cotta, Stuttgart, 2000, p. 177.

هنالك. ولم يوجد في الواقع أي قطاع في الاقتصاد التونسي لا تديره هذه الشبكة. ويضم هذا أيضاً على نحو قاطع السوق السوداء والاقتصاد «غير الرسمي».

وكان السفير الأميركي روبرت ف. غوديك، الشخص الأكثر شأناً الذي قدّم، في سلسلة من البرقيات إلى واشنطن بدءاً من ٢٣ حزيران/يونيو ٢٠٠٨، البيّنة الكافية على وجود عملية المافيا الرهيبة هذه في تونس. وتحتوي الموجزات كما نشرتها «ويكيليكس» على الآتي:

١-يتضح، طبقاً للمسح السنوي لمنظّمة الشفافية العالمية ولملاحظات مصادر السفارة، أن الفساد المالي في تونس في تفاقم مستمرّ. وسواء أتعلّق الأمر بالجانب المالي أم بالخدمات أم بالأراضي أم بالممتلكات أم، نعم، حتّى بيختك نفسه، فإن عائلة الرئيس بن علي، بحسب ما يتم تشييعه هنا، تطمح إلى الحصول عليه، وهي التي بحسب ما يُقال تحصل على كل ما تريده بشتى الوسائل. وبعيداً عن حكايات صفقات فساد العائلة الحاكمة الغامضة، يفيد التونسيون بأنهم يواجهون أيضاً فساداً على مستوى أدنى في تعاملهم مع الشرطة، والجمارك، وعدد من الوزارات.

ويتضح التأثير الاقتصاديّ، إذ إن المستثمرين التونسيين – الذين يخشون الذراع الطويلة «للعائلة» – يفضّلون تجنّب الاستثمار في مشاريع جديدة، الأمر الذي يخفض في نسق الاستثمار الداخلي عند أدنى مستوى، كما يؤدي إلى ارتفاع نسبة البطالة (المرجع ز، ح)...

٢- ثمة شعور، بحسب مؤشّر منظّمة الشفافية العالمية لسنة ٢٠٠٧، بأن الفساد في تونس يتفاقم بشدة....وعندما سئل xxxxxx هل يعتقد أن الفساد إلى تراجع أو إلى تفاقم أو باقٍ على حاله، هتف ساخطاً: «إنه يتفاقم بالتأكيد!» ... بل ذهب إلى حدّ القول إن كلفة الرُّشى قد ارتفعت....

٣- يُشار في الغالب إلى عائلة الرئيس بن علي الواسعة بوصفها معقل الفساد التونسي: وغالباً ما يشار إليها على أنها أشبه بالمافيا، وبالتالي فإن مجرّد الإشارة العابرة إلى «العائلة» يكفي للدلالة على العائلة المقصودة. ويمكن على ما يبدو لنصف رجال الأعمال التونسيين ادعاء ارتباطهم ببن علي عبر المصاهرة، ويُقال أن

الكثيرين منهم استفادوا من نَسَبهم إلى أقصى الحدود. وتثير زوجة بن علي، ليلى طرابلسي، وعائلتها الواسعة – آل طرابلسي – نقمة التونسيين الأشد. وغالباً ما أُرفقت التلميحات في شأن فساد آل طرابلسي بتعليقات لاذعة حول نقص تعليمهم وتدني مستواهم الاجتماعي وإسرافهم الواضح. وفيما ينطلق بعض الشكاوى من عشيرة الطرابلسي من ازدراء نزوعهم إلى الإثراء السريع، يحاجُّ التونسيون أيضاً بأن آل طرابلسي يستخدمون تكتيكات ليّ الأذرع والاستغلال الصارخ للنظام الأمر الذي يسهّل على الناس كرههم. وشقيق ليلى، بلحسن، هو الأكثر سوء سمعة بين أفراد العائلة ويُشتهر عنه تورّطه في عمليات فساد واسعة النطاق من التعديلات الكبرى في مجلس إدارة بنك تونس (المرجع ب) إلى الاستيلاء على الملكيات وابتزاز الرُّشى. وإذا وضعنا جانباً مسألة الأسلاف، فإن مقتنيات بلحسن واسعة وتضمّ شركة طيران وعدة فنادق وواحدة من محطتي الإذاعة الخاصتين في تونس ومعامل لتجميع السيارات ووكالة شركة فورد وشركة تطوير عقاري والقائمة تطول. بيد أن بلحسن ليس إلا واحداً من أخوة وأخوات ليلى المعروفين، ولكل منهم أولاده..»[١].

وتعود آخر البرقيات المنشورة في «ويكيليكس» إلى ٢٠٠٩، وهي تحتوي على إشارة غير مباشرة إلى التعذيب في السجون التونسية إضافة إلى تقارير مباشرة عن الفساد السياسي وفقدان الحرّيات الأساسية.

ينظر الشعب التونسي إلى أسلوب حياة ليلى على أنه فاضح بالفعل. فقصر سيدي الظريف، الذي شيّدته في سيدي بو سعيد، أشبه بمعبد منه بمقرّ للإقامة. وقد عُبّئ الجيش لبنائه الذي استغرق خمسة أعوام وجهد العمال في بنائه ليلاً ونهاراً. وجيء بعدة وزارات للإشراف على أعمال محدّدة حيث تولّت وزارة الزراعة، على سبيل المثال، زرع الأشجار. وضمّ المبنى الضخم عيادةً خاصةً ذات تجهيزات طبيّة متطوّرة جداً بما في ذلك منشآت لتوفير العلاج الكيميائي لبن علي، وفيه العدد الوافي من الموظفين: «يتألف الطاقم من مربّيتين، وخمسة طبّاخين، وحلوانيّين، وثلاثة غاسلين للأواني، وستة نُدُل، وإداريّين، و١٦ خادماً، وثلاث مرضعات، وستة أشخاص للعناية بالبياضات، وكهربائيّين، وخمسة ممرضين، وثمانية سائقين، و٣٢

(١) Erdle, Op. cit., p. 145-146, Beau, Op. cit., pp. 41-46.

حارساً شخصيّاً، ومسؤولَين عن حوض السباحة، وستة بستانيين، وثمانية دهّانين دائمين»[١].

ووفت ليلى بوعدها وأقام أفراد عائلتها في القصر وأخذت بدءاً من ٢٠٠٢ و٢٠٠٥ تشتري لهم المنازل. ودخلت في الوقت نفسه مجالاً جديداً هو علم الآثار. وأصيبت بهوس متعصّب لامتلاك القطع الفنّية القيّمة جدّاً، بما وُصف أنه «إدمان»، واستخدمت موقعها لإعادة كتابة قوانين تقسيم المناطق والاستيلاء على مواقع تحتوي على كنوز أثرية، ونهب الإرث الفني للبلاد[٢].

وشرعت ليلى ظاهريّاً في نشاطات خيرية اجتماعية ومن بينها مؤسسة «بسمة» التي أنشأتها في ٢٠٠٠ للمساعدة على توظيف المعوقين. وأشرفت في ٢٠٠٧ على بناء مدرسة قرطاج الدولية على أرض حكومية معفاة من الضريبة وموّلتها بأموال الحكومة. وبدا أن ليلى، بحسب ما ذكر السفير غوديك، باعت المجمّع كلّه إلى مجموعة بلجيكية وحصّلت ربحاً صافياً بما أنها لم تصرف قرشاً واحداً من جيبها على المشروع. وعُيّنت أيضاً رئيسة للاتحاد النسائي العربي. والغريب في الأمر غياب أي إشارة على الإنترنت إلى هذه الجمعيات بعد انهيار بيت آل بن علي.

شكّل نادي «أليسا»، الذي أنشأته بوصفه نادياً للنساء فقط، إحدى المؤسسات المتفاخرة والرابحة المتعلّقة بـ«شؤون المرأة». وقد استوحته ليلى من نادٍ مشابه مخصّص للنساء فقط دعتها سوزان مبارك لزيارته، ولم تدّخر قرشاً واحداً (من مال الحكومة) لبناء النادي الذي يضمّ منشآت تتضمّن «مطعماً، وقاعة للاحتفالات، وقاعة للسينما، وقاعة للعب الورق، وأخرى للشطرنج بقيت مقفلة بسبب عدم وجود مشاركات؛ ومكتبة لن تُستخدم أبداً، وكازينو ومطبخاً ومكاتب من بينها مكتب لليلى»[٣].

---

(١) Wikileaks Cable: Tunisian Corruption and President Zine el-Abidine Ben Ali, http://middleeast.about.com/od/tunisia/a/tunisia-corruption-wikileaks.htm?p=1. أنظر أيضاً Beau, Op. cit., pp. 65-79 لتفاصيل عن نشاطات العائلة.

(٢) Ben Chrouda, Op. cit., pp. 43-46.

(٣) المصدر السابق، ص ١١٨.

نجحت ليلى، من خلال هذه المبادرات وغيرها، في تسويق نفسها، أقلّه في خارج تونس، بوصفها المُحرّكة الأولى لحقوق المرأة، الأمر الذي قد يُشكّل حيلةً مقصودةً لعرض صورة عن «الليبرالية» في تونس، ووسيلة لمواجهة التقارير في شأن استمرار انتهاكات حقوق الإنسان. ويعرض كتاب «الوصية على العرش» نظرية مُقنعة مفادها أن نظام بن علي أنشأ وعزّز «الدولة النسوية» كوسيلة لحرف انتباه الرأي العام الدولي عن الانتهاكات الشائنة لحقوق الإنسان التي تُرتكب يومياً في حقّ السكان المدنيين.

قادت ليلى الهجوم النسوي بقدر أكبر من الاندفاع والإقناع. أصبحت رئيسة منظمة المرأة العربية، ومركز المرأة العربية للبحث والتنمية، والمركز القومي للاتحاد الوطني للنساء التونسيات، والمؤتمر العالمي للنساء الإداريات، ومؤسسة بسمة للتنمية الاجتماعية التي تُعنى بشؤون المعوقين...[١]. ونظمت في الذكرى العشرين للانقلاب الذي قام به زوجها مؤتمراً حول «النظام الجمهوري ودور المرأة في تجذّر القيم والمواطنية وتعزيز عملية التنمية»[٢].

يتضح أن ليلى بن علي طرابلسي هي عرّابة «العائلة»، وهي التي «أوحت» بالعمليات وأدارتها، بما في ذلك عمليات زوجها. وعرّفت الدراسات السريرية لمثل هذه العلاقات النرجسية عن هذه الظاهرة بملاحظة أنه يمكن لبعض «النساء النرجسيات، الأكثر نجاحاً اجتماعياً، التماهي كلّياً مع مثل هؤلاء الرجال الممثلنين idealized، ويختبرن أنفسهن على نحو غير واعٍ بوصفهن الملهمات الحقيقيات لهؤلاء الرجال وقد ينتهي بهن الأمر وهنّ يتحكّمن في حياتهم»[٣].

السيّدة الرئيسة

أدارت ليلى الرئاسة التونسية وزوجها الرئيس بن علي. واستغلّت الحالة الصحية المتدهورة لزوجها لتجبر شخصيات الحكومة على معاملتها بوصفها صاحبة الأمر.

(١) Beau, Ibid., p. 27.

(٢) المصدر السابق، ص. ٢٨.

(٣) Kernberg, Love Relations, Op. Cit., p. 156, emphasis added.

ويذكر بو وغارسييه كيف أن ليلى استدعت أقرب المستشارين، وزير الخارجية عبدالوهاب عبدالله والأمين العام للرئاسة عبد العزيز بن ضياء، في لحظة كان فيها بن علي مريضاً، وأصدرت أوامرها في ما يتعلّق بسير الأمور: «تعرفان مثلي أن الرئيس يمرّ بمرحلة انهيارية لكثرة ما أعطى من دون حساب لخدمة البلاد. أطلب منكما بالتالي مراعاته وعدم الإثقال عليه بالأخبار أو بالملفات الجديدة التي من شأنها أن تزيد في حالته سوءاً. ويمكنكما، في أي حال من الأحوال وفي أي موضوع من المواضيع، التوجّه إليّ أوّلاً. فأنا الأدرى بكيفية عرض الأمور عليه»(١).

وهنا أخذت ليلى تُصدر توجيهات إلى مسؤولَين حكوميين رفيعين تتعلّق بإجراءات عامة طالبت باعتمادها. فهي صاحبة الأمر وهي التي يجب إطلاعها على الأمور أوّلاً وقبل كل شيء. أضف إلى ذلك أن مسيرة شؤون الحكم اليومية تركّزت في أيدي شبكة من المستشارين الرئاسيين، عددهم نحو ٤٠، وجوه جميعهم مقنّعة، ويشكّلون حكومةً رديفة(٢).

وأضحى الشعور الشعبي السائد وشعور حاشيتها المباشرة أن الرئيس المتقادم في السن يتخلّى أكثر فأكثر عن السلطة لزوجته الطموح. وكافح بن علي، المصاب بالسرطان، للإبقاء على المظاهر، فصبغ شعره واستهلك الكوكايين قبل ترؤسه الاجتماعات الحكومية. وتمتع أكثر ما يكون بتمضية الوقت مع ابنه ووارثه، محمّد، «فتدير ليلى في غضون ذلك الأمور». ولاحظ موظفوه أن «مشاهد كثيرة جعلتنا نعتقد أن الرئيس يعاني أحد أنواع الخرف فتتلاعب به ليلى وتتسلّى»(٣).

بن علي على المسرح

يدعم شعور التونسيين العام وجهة نظر سائق التاكسي بأن زوجة بن علي والعائلة يسيطران عليه، غير أنه ليس من شأن هذا أن يستبعد نرجسيته الخاصة أو ينفيها. فقد ولد بن علي، على غرار مبارك، في عائلة كبيرة وفقيرة، ورأى في الجيش المهنة

(١) Beau, Op. cit., pp. 30-31.

(٢) المصدر السابق، ص. ٥٩.

(٣) Ben Chrouda, Op. cit., pp. 56-57.

الوحيدة، والتحق به في الخامسة عشرة وهو لا يزال فتى يافعاً. وسبق له، قبل أن يخضع لتوجيه ليلى، أن أكّد النزعة الرغبوية الواضحة في السيطرة المطلقة على الآخرين من خلال استحصاله على مواقع قويّة داخل الجيش وفي عالم الاستخبارات. ويجب عدم إغفال أن بن علي تولّى، لدى اندلاع ثورة الخبز في ١٩٨٤، منصب وزير الدولة لشؤون الدفاع الوطني وأصبح بعدها بسنتين وزيراً للداخلية. وشهد، وهو سفير في بولندا في ١٩٨٠، القمع الشديد لحركة «التضامن»، وسيعتمد أساليب مماثلة ضد الإسلاميين وكذلك ضد الحركة الثورية في ٢٠١٠[1]. وتيقن بن علي من تحويل وزارة الداخلية في عهده إلى سوبر وزارة بلغ عديد قواتها العاملة ١٤٥ ألف شرطيّ - لسكّان يبلغ عددهم العشرة ملايين!

يعكس إحلاله الديكتاتورية التوتاليتارية، التي تعزّزها أساليب الدولة البوليسية، المظهر النموذجي للزعيم النرجسي كما ظهر في حالتي القذافي ومبارك. ولمّا ووجه بالانتفاضة الشعبية في كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٠ لم تستطع حتى الزوجة ليلى حمايته من الغضب المُبَرّر للشعب المكبوت والمنهوب منذ عقود. وبالرغم من أن بن علي لم يكن قطّ قائداً كاريزمياً، بل على العكس أكثر ميلاً إلى الابتعاد عن الأضواء، فقد اضطُرّ إلى مواجهة مواطنيه في ٢٨ كانون الأول/ديسمبر.

أظهر، في هذا الخطاب الأول من بين ثلاثة، تنوّعاً في الردود التي فهرسها الأدب السريري. وتميّز، في إشارته إلى الانتحار المأسوي لمحمد بو عزيزي الذي أشعل التظاهرات الجماهيرية، بالبرودة والعداء والانفصال عن الواقع.

بدأ بالقول أنه «وفيما نجمت هذه الأحداث عن قضية اجتماعية واحدة، نتفهّم ظروفها وعواملها النفسية وعواقبها المؤسفة، فإن الأحداث التي أخذت منحى متطرّفاً نتيجة التلاعب السياسي لبعض الأطراف التي لا تكنّ الخير للبلد واللجوء إلى بعض محطات التلفزيون الخارجية التي تبث الأخبار الكاذبة والمزاعم وتعتمد على التهويل والأخبار الزائفة المعادية لتونس، تتطلب منّا توضيح بعض المسائل والتأكيد على الحقائق التي يجب أخذها في الاعتبار:

(١) Erdle, Op. cit., p. 96.

«فنحن نتفهّم في البداية مشاعر أي شخص عاطل عن العمل، وخصوصاً ظروفه الاجتماعية الصعبة وحالته النفسية الهشة، وهو يبحث عن عمل، الأمر الذي قد يقوده إلى اللجوء إلى حلول يائسة بغية لفت الانتباه إلى وضعه».

ويشكّل تصوير بن علي لمأساة بوعزيزي على أنها «حالة اجتماعية» لشخص «بنيته النفسية هشّة» تشويهاً قاسي القلب يظهر عجزه عن التعاطف – وهذا أمر نموذجي في النرجسية. ونموذجي أيضاً لهذا الاضطراب العاطفي هو سعي الزعيم التونسي الفوري إلى كبش فداء يأخذ شكل «التسيير السياسي من بعض الأطراف» بمساعدة من الصحافة الخارجية (أي «الجزيرة»).

أشار بن علي، في ما بدا أنه مخاطبة لمظالم شعبه الحقيقية، إلى البطالة، لكنه سرعان ما وصفها بأنها «تشكّل مصدراً للقلق في مختلف بلدان العالم». وتابع يقول إن في تونس عدداً كبيراً (٨٠ ألفاً) من متخرجي الجامعات، وهذا مصدر فخر، وزعم بأن «الدولة ستجهد لإيجاد حلول لاستيعاب طلبات التوظيف... وستعمل في الوقت نفسه على زيادة الأجور والمداخيل العائلية...». لكنه لم يقدّم إجراءات ملموسة لإضفاء المصداقية على وعده، وواصل بدلاً من ذلك حملته على العدو:

«ولا مجال بالتالي.... لقبول استغلال الحالات الفردية أو حدث ما أو الوضع غير المتوقّع لتحقيق أهداف سياسية بائسة على حساب مصالح المجتمع الوطني ومكاسبه وإنجازاته، وأولاً وقبل كل شيء، التوافق والأمن والاستقرار».

«من غير المقبول أن تلجأ أقلية من المتطرفين ومثيري الشغب تعمل لمصلحة الآخرين وضد مصالح البلاد إلى العنف والشغب في الشارع كوسائل للتعبير... ومن شأن هذا أن يضرّ بدفق المستثمرين والسياح وتكون له انعكاسات سلبية على توفير الوظائف...».

ولا يمكن لكلماته إلا أن تبدو كاذبةً وتهكّميةً لدى معرفة، كما يعرف ذلك الشعب التونسي، أن العائق الحقيقي أمام الاستثمار وخلق فرص العمل يقع في اقتصاد العائلة المافيوي. وأعاد التأكيد على «الحاجة إلى احترام حرّية الرأي والتعبير» – عقب ٢٣ عاماً من القمع الوحشي – لينتهي إلى القول بكل وقاحة: «نبقى ملتزمين

البعد الاجتماعي لسياستنا التنموية...». وعلى أي مشاهد موضوعي أن يستنتج أن الرجل على طلاق تام مع الواقع.

انقضى أسبوعان قبل أن يستجمع رئيس الدولة التونسية قوته النفسية للتوجه إلى الشعب من جديد بعد تظاهرات يومية وعدد لا يحصى من الإصابات الناتجة من استخدام شرطته القوة الغاشمة. وكرّر في خطاب العاشر من كانون الثاني/ يناير، وبعبارات أكثر تشدّداً وإساءة، تأكيده الناتج من جنون الارتياب بأن اللوم يقع على مثيرين خارجيين للشغب. «أحداث العنف... أثارتها عصابات ملثمة... بلغ بها الأمر حدّ الاعتداء على المواطنين في بيوتهم في عمل إرهابي لا يمكن التسامح حياله». واتهم «الأطراف» المُحرّضة «بعدم التردد في استخدام أولادنا» من أجل «الحثّ على العنف»، بنشرها الأكاذيب واستغلال الانتحار «الحادثة التي نأسف لها جميعاً». ويبقى أن المسؤولين يشكّلون «مجموعة صغيرة من العناصر المعادية» تعمل من باب «الغيرة من قصة نجاح تونس الاقتصادية»، «عناصر لا تكنّ الخير لتونس»، «مأجورون يسترهم أطراف من الخارج باعوا أرواحهم للتطرف والإرهاب»، وما سوى ذلك. وأوضح النية على استمرار ردّ الشرطة بالعنف، مكرّراً «إن القانون هو الفيصل. نعم القانون هو الفيصل».

حاول بن علي أن يقدّم، في هذه الملاحظات، شيئاً ملموساً لمعالجة شكاوى الناس، واعداً «بمضاعفة وخلق فرص جديدة للشغل» بحيث تصل إلى ٣٠٠ ألف بحلول ٢٠١٢، لكن ذلك لقي أذناً صمّاء نظراً إلى أنه وعد بالشيء نفسه قبل ذلك بعقدين ولم ينتج منه شيء.

أنهى بن علي خطابه بشكر من القلب «لأخي العزيز القائد معمّر القذافي قائد الثورة الليبية»، لاستضافته، على ما يبدو، اللاجئين التونسيين الهاربين من العنف. وليس من قبيل المصادفة أن الأخ معمّر هو الذي سيقدّم له الطائرة لهروبه من تونس.

وضرب خطابه في ١٣ كانون الثاني/يناير على وتر مغاير. فقد ظهر الرئيس، أوّلاً، على التلفزيون واقفاً، فيما جلس في المرات السابقة وراء المكتب الرئاسي. وأظهرت لغة جسده أنه مضطرب ويده اليمنى وذراعه تخبطان في هذا الاتجاه وذاك، وصوته يرتفع على فترات.

غير أن السمة الأبرز في ما سيثبت أنه خطابه الأخير هو اختياره اللغوي. فبدلاً من تحدّثه بالفصحى، التي انتصر لها منذ ١٩٨٧ ، أعلن، «أكلّمكم اليوم، أكلّم التونسيين جميعاً... أكلّمكم بلغتكم». وسبق لبن علي أن أعاد إدخال الفصحى في أول خطاب له بعد انقلابه على بورقيبة الذي تكلّم وهو رئيس، بخليط من أشكال اللغة العربية أو الفرنسية، الخ. أحيا بن علي الفصحى بوصفها الشكل الوحيد من أشكال العربية المستخدمة في الخطابات العامة. وها إنه اليوم، بعدما أراد لذلك في حينه أن يشكّل إشارةً منه إلى الانتقال إلى حقبة جديدة، يعود إلى اللغة الشعبية في سعي منه لإقامة اتصال مع شعب تنكّر له لعقود[١].

يشكّل اعتماد بن علي اللهجة العامية، من وجهة نظر الأخصائي في هذا الحقل، محاولةً يائسةً لإقامة رابط ما مع شعبه. لكنه فقد أي اتصال بالواقع ولم يستطع أن يرى إلى أي مدى بات شعبه بعيداً منه. وربّما اعتقد، باستخدامه اللغة المحكية، أنه يصبح في موقع هجومي، لكن ذلك لم ينجح. وتقول إحدى الروايات إن فكرة الحديث باللغة المحكية هي من طبخ ليلى.

هذا بالنسبة إلى الشكل. أما بالنسبة إلى المحتوى فإن خطاب بن علي الأخير يجمع ما بين محاولات التعبير عن ردّ إنساني على التطورات الدرامية والإصرار الهستيري على المواضيع المألوفة: بأن العنف تقوم به مجموعات صغيرة وبأن على جميع التونسيين أن يتكاتفوا لمصلحة الأمة. وبدا أنه يتضرّع إلى مستمعيه مردّداً: «لقد فهمت الجميع، لقد فهمتكم»، و«تألمنا لما حدث شديد الألم... حزني وألمي كبيران». وتطرّق من جديد إلى فكرة أن مجموعات صغيرة هي التي تنظّم العنف في ما يُعتبر عملاً لا خلقياً وجريمة، ودعا إلى الوحدة الوطنية لهزم مثل هذه المجموعات.

ويُعتبر هذا بمنزلة إنكار سريري نظراً إلى أنه تحدّث إلى الأمة بعد نحو ثلاثة أسابيع من الحشد الجماهيري الذي قتل فيه ٢١٩ شخصاً وجرح ٥١٠، ومع ذلك أخذ عدد المتظاهرين يتضخّم عشية خطابه. فشعبه يطلب إليه الرحيل وهو يدعو إلى الوحدة الوطنية ضد مجموعات صغيرة مزعومة تزرع الانقسام والعنف!

---

(١) Ben Ali speaks in Tunisian “for the first time,” http://languagelog.ldc.upenn.edu/nll/?p=2905)

وحاول بن علي، على غرار مبارك، الإشادة بأعوامه الخمسين التي أمضاها في خدمة البلاد، في المواقع العسكرية والسياسية، التي بذل في خلالها تضحيات لا تُحصى. وعلى غرار مبارك، قال إنه حزين «حزني كبير، كبير جدّاً، وشديد، شديد جدّاً. كفى عنفاً! كفى عنفاً!»

وقال في اللحظة التالية إنه أصدر أوامره للشرطة بوقف استخدام الذخيرة الحية ضد المواطنين، أي إنه يعترف بحصول ذلك، وبالتالي فإن الوفيات التي ادعى الأسف والحزن عليها وقعت على أيدي شرطته التي انصاعت بذلك لأوامره. وأعقبت ذلك لائحة من الأوامر التي أصدرها أملاً منه في إنقاذ الموقف، بالرغم من أنه ولا بدّ قد أدرك عند هذا الحد أنه لم يعد هناك من مخرج. وأعلن تشكيل «لجنة مستقلة» للتحقيق في عمليات القتل، وإعطاء الحرية الصحافية لوسائل الإعلام كافة بما فيها الإنترنت، وضمان حرّية التعبير السياسي بما في ذلك التظاهر السلمي (المؤطّر والمنظّم)، وتعزيز الديمقراطية والتعددية، وما إلى ذلك. ولموافقته على التظاهر – من دون ترخيص – نكهة السخافة الحقّة نظراً إلى أن البلاد بأسرها نزلت على مدى الأسبوعين ونصف الأسبوع الماضيين إلى الشوارع ضدّه من دون أي اعتبار، مهما صغر شأنه، للترخيص البيروقراطي. وهذا يؤشّر أيضاً إلى فقدان الارتباط بالواقع.

ومضى بن علي في الكشف عمّا اعتبره قرارات تاريخية، مثل عدم ترشيح نفسه للانتخابات الرئاسية في ٢٠١٤ وبالتالي «لا رئاسة لمدى الحياة». مكرّراً «لا رئاسة لمدى الحياة» في ما يشبه الخروج من حالة الذهول.

الروايات التي نقلها موظفوه السابقون بالتفاصيل الكاملة الباعثة على الاستغراب عن تلك الأيام الأخيرة قد تتفق مع الحقيقة أو لا تتفق معها. وإحدى النقاط البارزة التي طُرحت هي أن بن علي سعى إلى استرضاء الحشود وتهدئتها فيما حرّك عماد، ابن شقيق ليلى (وربما في الواقع ابنها)، عصابات من شُذّاذ الآفاق لمهاجمة المتظاهرين وبالتالي تصعيد التوتّرات. فغضب بن علي وجابهه. كما أنه جابه ليلى واتهمها بأنها سبب الانتفاضة.

«دفع الريّس بليلى فجأة:

ـ أنتِ السبب في هذا كله! أنت السبب! أنت السبب!

استدارت ليلى وانهالت بالشتائم:

ـ اذهبوا...

جاءت حليمة (ابنة بن علي) وانضمّت إلى المجموعة وصاحت باكية:

ـ طلّق، طلّق، اقطع كل علاقة لك مع آل طرابلسي! ضعهم جميعهم في السجن، أنقذ نفسك وأنقذ شعبك!»[١]

وعندما ازدادت الأزمة واتضح أن النهاية قريبة، حثّت حليمة بن علي من جديد على التضحية بآل طرابلسي لكنه لم يفعل أو لم يتمكن من ذلك. وذكر الشهود أنفسهم أن ليلى ضغطت على بن علي في خطابه الأخير لعدم التطرّق إلى مسألة آل طرابلسي.

فرحت الحشود لمعرفتها بأن أيام بن علي قد ولّت، فيما استعدّت العائلة على عجل للهرب. انهار بن علي نفسيّاً رافضاً دخول الطائرة إلى أن حثّه أفراد حرسه على ذلك. وقد زوّده الأخ معمّر الهليكوبتر التي طارت به إلى السعودية. وبوصولهم إلى جدّة أذيع خبر تعرّض بن علي لجلطة وقد نُقل (تحت اسم آخر حماية لأمنه!) إلى المستشفى. وليس في وسعنا تأكيد صحة خبر إصابة بن علي أو عدم إصابته بجلطة. لكن من المفيد الإشارة إلى أن المرض، بحسب ما يوثّق ذلك الأدب السريري، يشكّل في الغالب انسحاباً من الواقع.

(١) Ben Chrouda, Op. p. 159.

الفصل الخامس

علي عبدالله صالح - شخصية شكسبيرية تراجيدية

يستحضر مشهد الرئيس اليمني علي عبدالله صالح وهو يؤكّد يائساً تمسّكه بالسلطة والزعامة صور بعض من أعظم أعمال شكسبير بالنسبة إلى من يتحدّر من خلفية ثقافية أوروبية: الملك لير في الأرض العراء وقد جرّدته بناته المتآمرات من سلطته وحاشيته معاً، وهو يتمسّك يائساً بادعائه السلطة. أو ريتشارد الثالث في مواجهة أعدائه لوحده عمليّاً في ساحة الوغى وقد خسر حتى حصانه ويطلب إلى أي أحد أن يزوّده واحداً: «مملكتي في مقابل حصان!» صاح. والأصح هو المقارنة مع هاملت، الذي أدى عجزه النفسي عن التصرف والفعل إلى سلسلة من المآسي.

قد يكون الإطار الثقافي غريباً تماماً، غير أن ما يجعل التشبيه الشكسبيري معقولاً هو أن هذين البطلين المأسويين، المقتنعين بأن الدسائس والمؤامرات مسؤولة عما نزل بهما من كوارث، يتحمّلان في النهاية مسؤولية قدريهما. فقرار لير الجنوني تقسيم مملكته وشبق ريتشارد الثالث الدموي للسلطة هما اللذان أوصلاهما إلى الهلاك.

وهكذا الأمر بالنسبة إلى من شاء أن يكون رئيساً لليمن على مدى الحياة؛ إذ يجب التفكير في أن سياساته وأسلوبه في الزعامة كرئيس قضى في السلطة ثلاثين عاماً هما اللذان أديا إلى التظاهرات التي بدأت في كانون الثاني/يناير ٢٠١١ للمطالبة بتنحيته. وتتشابه سيرة حياة صالح، ومهنته، وإنشاؤه نظاماً سياسيّاً على نحو لافت مع

حالتي مبارك وبن علي، وردّد بالتالي سلوكه في خلال الأزمة صدى سلوك جاريه الإفريقيين الشماليين. وبالرغم من أن كلاًّ منهم يشكّل شخصاً مختلفاً ومستقلاًّ، فإنهم يُظهِرون جميعهم عوارض غريبة متشابهة من عوارض اضطراب الشخصية المرتبطة بالنرجسية وجنون العظمة والهستيريا.

من الفقر إلى السلطة

وُلد علي عبدالله صالح، على غرار القذافي ومبارك وبن علي، في عائلة فقيرة من عشيرة المرعض، والتحق، وهو فتى غير متسلّح إلا ببعض قواعد اللغة التي تعلّمها في المدرسة، بالجيش الذي شكّل الفرصةَ الوحيدةَ المتاحةَ أمامه لتحقيق شيء ما في حياته. ومن غير الواضح كم كان يبلغ حينئذ من العمر بما أن هناك تاريخين لولادته: فسيرته الرسمية تقول إنها ١٩٤٦ في حين تشير مصادر أخرى إلى ١٩٤٢[1]. ولو صحّ التاريخ الأول فسيكون عمره ١٢ عاماً فقط عندما تجنّد في ١٩٥٨، ما يجعل منه طفلاً جنديّاً بحسب التصنيفات الراهنة لحقوق الإنسان. وحتى لو وُلد في ١٩٤٢ فسيكون عمره لدى التحاقه بالجيش ١٦ عاماً وهذا يعني جنديّاً فتيّاً جداً. وانتشرت روايات جامحة على الإنترنت حول خلفية عائلة صالح ليعلن بعضها أنه طفل غير شرعي تخلّى والده عن العائلة. وتفيد سيرة الحياة الرسمية أن زوج أمه، صالح، وهو شقيق والده المتوفى، ربّاه، غير أنها لا تتضمّن تفاصيل مثل أسماء أفراد الأسرة. كذلك هناك روايات مفرطة تتعلق بدوره الريادي في ثورة ١٩٦٢ وإصابته بجروح في الحرب الأهلية في ١٩٦٣. ومرّة أخرى، وتبعاً لتاريخ ميلاده، فإن سنّه ورتبته في تلك الفترة تثيران التساؤلات عن صدقية مثل هذه التقارير. ولا شك، مهما كانت التفاصيل، في أن صالح ترعرع في ظروف رهيبة وتعرّف في سنّ مبكرة إلى فظائع الحرب.

(١) تتوافر سيرة حياته الرسمية على موقع http://www.yemen-nic.net/English%20site/SITE%20CONTAINTS/presidency/President/Biog.pres.htm, the National Information Center of Yemen (French) at http://www.yemen-nic.info/fr_site/President, and http://www.presidentsaleh.gov.ye/ in Arabic.

تسلّق سريعاً، على غرار القذافي ومبارك، سلّم التراتبية العسكرية وانتُخب في ١٩٧٨ رئيساً للجمهورية العربية اليمنية وقائداً أعلى للقوات المسلحة، وأعيد انتخابه في ١٩٨٣. وأصبح، بعد مزيد من الترقيات إلى جنرال فلواء، رئيساً للمجلس الرئاسي للوحدة اليمنية في أيار/مايو ١٩٩٠، وأعيد انتخابه في ١٩٩٣ و١٩٩٤ و١٩٩٩ وكانت تلك الأخيرة المرة الأولى التي تُجرى فيها انتخابات رئاسية مباشرة. وفاز، من دون أن يترشح ضده أحد، بـ ٩٩,٢ بالمئة من الأصوات. ومدّد البرلمان في غضون ذلك ولاية الرئاسة من خمس إلى سبع سنوات، وولاية البرلمان من أربع إلى ست سنوات. وأحاط بالبرلمان مجلس استشاري عيّنه الرئيس ويمتلك سلطات تشريعية. وأعلن صالح في ٢٠٠٢ أنه لن يترشح لإعادة انتخابه في ٢٠٠٦، لكن عاد وفعل رضوخاً «للضغط الشعبي» وفاز بـ ٧٧,٢ بالمئة. وشكّلت رغبته في الترشح من جديد بعد انتهاء ولايته في ٢٠١٣ واحداً من العوامل التي أشعلت الثورة في اليمن.

العائلة

يقدّم علي عبدالله صالح مثالاً جيّداً على كيفية إفساد السلطة للمرء. فعلى غرار بن علي وزوجته ليلى طرابلسي، اعتبر صالح الدولة بمنزلة مؤسسة عائلية، ربما كردّة فعل على العلاقات غير المنتظمة داخل عائلته. وأعطى معنى جيّداً لعبارة محاباة الأقارب nepotism: فالكلمة مُشتقّة من الكلمة الإيطالية «نيبوتي» nepote التي تعني ابن الشقيق أو الشقيقة، وتشير إلى منح الامتيازات إلى أفراد العائلة. وغالباً ما حصل، تاريخيّاً، أن يعمد أحد الباباوات، الذي كعَزَب لا يمكن أن يكون له أولاد، إلى معاملة أولاده غير الشرعيين وكأنهم «أولاد أشقائه» ويقدّم لهم امتيازات خاصة. وقد وضع صالح أولاد أشقائه وشقيقاته في أعلى المراتب، ولا عجب في أن المعارضة التي تطالب باستقالته أصرّت أيضاً على أن يعمد أقرباؤه – وخصوصاً أولاد الأشقاء والشقيقات – إلى توضيب حاجاتهم.

ويُذكّر توزيع السلطة والامتيازات بين أفراد عشيرة صالح بتركيبة بن علي/ طرابلسي، سوى أن اليمن، وعلى عكس تونس، بلد فقير جداً. وبالتالي فإن الشركات والأموال والمؤسسات التي يتم تقاسمها هي ربما أقل كسباً من تلك التي في تونس

بالرغم من أن مبدأ الفساد وآلياته هما أنفسهما. وتتضمّن بنية السلطة في عائلة صالح، بحسب المصادر التي يمكن المرء الوصول إليها، كلاً من ابنه، وسبعة أخوة غير أشقاء، وخمسة أولاد أخوة، و١١ صهراً[١]. والمراكز التي ورثوها مدهشة: فابنه البكر، أحمد علي عبدالله صالح، قائد للحرس الجمهوري (وعديده نحو ٣٠ ألف رجل) وللقوات الخاصة. ويحتل ثلاثة من أولاد شقيقه المتوفى وجميعهم برتبة عقيد مراكز أمنية أساسية: فيحيى محمد عبدالله صالح رئيس أركان الأمن المركزي الذي يُقال أنه يسيطر على المدن الكبرى بما فيها صنعاء إضافة إلى مكافحة الإرهاب؛ وطارق محمد عبدالله صالح قائد للحرس الخاص؛ وعمّار محمد عبدالله صالح نائب لرئيس جهاز الأمن الوطني. وهناك ابن شقيق آخر، هو توفيق صالح عبدالله صالح، يرئس شركة التبغ والكبريت الوطنية. وليحيى أيضاً دور ناشط في الدائرة الاقتصادية في شركة الماس للخدمات النفطية وشركة الكابل الصينية «ها ـ وي»[٢].

يتولّى الإخوة غير الأشقاء مناصب عسكرية: فالعميد محمد صالح الأحمر يقود سلاح الجو، والعميد علي صالح الأحمر يترأس أركان القيادة العامة، والعميد علي محسن الأحمر، وارتباطه العائلي غير واضح، يقود فرقة المدرعات الأولى في المنطقة العسكرية الشمالية الغربية. وتقع مناصب عسكرية ريادية أخرى في أيدي عناصر من قبيلة صالح، حاشد، من المتحدرين من قريته في سنحان.

ويوجد من بين الإخوة غير الأشقاء والأصهار ربابنة صناعة يتولون مناصب إدارية في قطاعات النفط والهندسة والزراعة والبناء والنقل والبنى التحتية والدواء

(١) New York Times, January 5, 2010, In Yemen, U.S. Faces Leader Who Puts Family First; Ali Abdullah Saleh Family in Govt and Business, http://armiesofliberaiton.com/archives/2006/04/08ali-abdullah-saleh-family-in-yemen-govt-and-business,http://arabrevolution.posterous.com/updated-full-list-of-ali-saleh-family-relativ, and http://commentmideast.com/2011/04/yemen-a-family-business/, Paul Dresch, A History of Modern Yemen, Cambridge University Press, 2000, pp. 149, 189, 201- 202.

(٢) ما له دلالته أن محاباة صالح للأقارب تعود إلى سنواته الأولى في الحكم. فقد تولى أخوه غير الشقيق في أواخر السبعينيات المسؤولية عن حزيز في بوابة سنحان ليصبح لاحقاً قائداً للحرس الوطني، فيما تولى شقيقه من أمه وأبيه، محمد عبدالله صالح، رئاسة الأمن المركزي. Dresch, Ibid., p. 149.

وما شابه. أما في الحكم فالأصهار موجودون في وزارة الشباب والرياضة ووزارة الخارجية ووزارة التصميم والتعاون الدولي إضافة إلى القصر الجمهوري والسلك الديبلوماسي. كذلك، وإكمالاً للدائرة، تزاوجت عائلة صالح الكبرى مع عائلات بارزة مثل آل القاضي.

وكان أن تمرّدت المعارضة في مطلع ٢٠١١ على هذه النسخة اليمنية من عائلة طرابلسي. وسرت شائعات، أعقبت محاولة صالح الفاشلة تعديل الدستور ليسمح له بالترشح أيضاً لولاية أخرى، بأنه خطط، على غرار مبارك، لأن يخلفه ابنه بعد ٢٠١٣ موعد انتهاء ولايته، وهو خيار لم يقبله أحد.وقدّمت أحزاب اللقاء المشترك، في خطتها المؤلفة من خمس نقاط لانتقال السلطة، لائحة بأسماء ثلاثين شخصاً تجب إزاحتهم وقد أشير إلى الكثيرين منهم سابقاً. ويبقى الرئيس علي عبدالله صالح، ولا شك، الهدف الأول، فردّ بالوحشية نفسها التي تُميّز الزعماء المهيبين والتي برزت في تونس والقاهرة. ونفى بعجرفة، في حديثه المتلفز في ٢٣ كانون الثاني/ يناير،الشائعات في شأن الخلافة بوصفها «أقصى درجات الوقاحة»، وأعلن في السياق نفسه زيادة رواتب أفراد القوات المسلحة في محاولة واضحة لتعزيز التزامها قمع المتظاهرين.

لم يتورع صالح، مع سيطرة العائلة من فوق على الشرطة والقوات الخاصة والجيش، عن إصدار الأوامر بإطلاق النار على المدنيين المتظاهرين سلميّاً. وقال إنه أصدر مثل هذه الأوامر لقوات الأمن «في حالات الدفاع عن النفس فقط»، لكن هذا كذب فاضح بما أن المتظاهرين غير مسلحين. وضمّت قوى القمع قطّاع طرق مدفوعي الأجر وقناصة أطلقوا الرصاص الحي عن سطوح المباني. وتجاوز عدد القتلى في أواخر شباط/فبراير الـ١٢، وأخذ هذا العدد في الازدياد يوماً بعد يوم ليبلغ ذروته في ١٨ آذار/مارس عندما قُتل ٤٢ شخصاً في هجوم على الجامعة وقد أصيب معظمهم في الرؤوس والأعناق. وأعاد هذا الحدث، الذي شكّل «مجزرة» بحسب أحد الأطباء، تحديد السياق السياسي وشرع أعضاء بارزون في المؤسسة الحاكمة في الاستقالة تعبيراً عن سخطهم الخلقي. وأعلن صالح حالة الطوارئ.

نرجسي متردّد

شكّل سلوك صالح، منذ بداية الاحتجاجات والتزايد في حدّتها، صدىً من عدّة نواح لسلوك القذافي: فقد دعم سلطته الخاصة بتنظيمه تظاهرات مؤيدة للحكومة، وعامل المعارضة باحتقار مطلق، ولجأ إلى نظريات المؤامرة، وتلاعب بمحاوريه في ما يشبه لعبة القط والفأر التي تهدف إلى كسب الوقت فقط أملاً في تجنّب المحتوم. وأخذ، مع كل يوم يمر، يفقد الاتصال بالواقع.

حشدت التجمعات «المؤيدة» ظاهريّاً للحكومة الآلاف في عدّة مناسبات في العاصمة صنعاء؛ ودُفع للمشاركين في البداية ما يعادل الثلاثة دولارات في اليوم إضافة إلى الطعام وحصّة يوم واحد من القات وهو المخدّر الشعبي في اليمن.[١] وأخذ مع مطلع نيسان/أبريل ينقل بالحافلات حشوداً من مدن أخرى وارتفع السعر إلى ٢٥٠ دولاراً لسكان صنعاء و٣٥٠ للآخرين[٢]. ويشكّل هذا المبلغ ثروةً في بلد يعيش أربعون بالمئة من سكانه بأقل من دولارين في اليوم. وعُهد بإخراج الأمر لكاميرا تلفزيون الدولة والصحافة الأجنبية وأظهرت التجمعات حشوداً تحيي بحماسة زعيمها وتصيح: «الشعب يريد علي عبدالله صالح».

وندّد صالح، وهو مغمور بالتزلّف الجماهيري المصطنع، بالمحتجين بوصفهم «محرّضين» ليعلن في ٢١ آذار/مارس بانتصار «سنبقى هنا»، وبأن غالبية الشعب تسانده. «وأولئك الذين يدعون إلى الفوضى والعنف والحقد والتخريب ليسوا إلا أقلية صغيرة». وقال في ٢٥ آذار/مارس في حشد من مؤيديه إن المناوئين «ليسوا إلا حفنةً صغيرةً من تجار المخدرات ومبيضي الأموال»، زعماؤهم من «المغامرين والمتآمرين يسعون إلى بلوغ السلطة على جثث الشهداء والأطفال»[٣].

وقد اتهم في وقت سابق الولايات المتحدة وإسرائيل بزرع بذور الفتنة في اليمن وسائر العالم العربي. وقال: «توجد غرفة عمليات في تل أبيب تعمل على زعزعة الاستقرار في العالم العربي»، وإن «البيت الأبيض يدير» ذلك المقرّ المركزي.

(١) Frankfurter AllgemeineZeitung, March 2, 2011.

(٢) الشرق الأوسط ١ نيسان/أبريل ٢٠١١.

(٣) Frankfurter AllgemeineZeitung, Macrh 26, 2011.

وأضاف: «أنت يا أوباما رئيس للولايات المتحدة وليس للعالم العربي»[1]. وسبق له أن أبلغ الصحافة في ٢١ شباط/فبراير أن «الشعب هو الحَكم وليست السفارة الأميركية والولايات المتحدة أو الاتحاد الأوروبي».

وعندما حوّلت عدّة شخصيات عسكرية كبرى دعمها إلى المعارضة وصفهم صالح بـ«الأغبياء» ودان «حماقتهم» التي جاءت «ردّاً على ما حصل يوم الجمعة». ويشكّل تعبير «ما حصل يوم الجمعة» تلطيفاً قاسياً في وصف مجزرة الجامعة التي أثارت بالفعل عمليات ارتداد على مستوى رفيع. واستمرت أوهام السلطة تدور في رأس صالح عندما عرض في الخطاب نفسه «العفو» عن العسكريين المرتدّين – كما لو أنه لا يزال يمتلك وسائل ملاحقتهم قانونيّاً!

وظهر تعظيم الذات نفسه في لازمته المتكرّرة «من بعدي الطوفان». وهدّد بالحرب الأهلية في اجتماع عقده في ٢٢ آذار/مارس مع العسكريين الذين بقوا إلى جانبه: «على الذين يريدون تسلّق السلطة من طريق الانقلاب – مشيراً إلى المرتدّين – ألا يعتقدوا أن الأمور ستستقر، فهذا غير وارد، لن يستقر الوطن. وستتحوّل (الأمور) إلى حرب أهلية، إلى حرب دامية»، وعليهم بالتالي أن «يحسبوا حساباً دقيقاً». وأبلغ بعد ذلك بأيام قناة «العربية» أنه لن ينقل السلطة إلى «الفوضى»، أي إلى المعارضة. وقال في ٢٦ آذار/مارس إن «اليمن قنبلة موقوتة»، وإنه إذا غاب عن الساحة فستندلع الحرب الأهلية.

تضارب ذهني

ظهر التعبير السريري الأكثر إثارةً للاهتمام في بنية شخصيته في لعبة القط والفأر التي حاول لعبها مع المعارضة والمجتمع الدولي في ما يتعلّق بالحل الديبلوماسي الممكن للأزمة. ولم ينتج الأمر من مناورة سياسية يمارسها صالح وحسب، بل شكّل أيضاً انعكاساً للانشقاق العميق الحاصل داخل ذهنه.

---

(١) المصدر السابق. عدد التايم في ١٤ آذار/مارس ٢٠١١. ذكرت النيويورك تايمز في الثاني من آذار/مارس أن صالح اتصل بواشنطن ليبلغها "أسفه على سوء التفاهم" الذي أثارته ملاحظاته.

بدت المسألة واضحة منذ البداية: فالمعارضة، التي تألفت في الأساس من شبان وطلّاب وتطوّرت إلى حركة ذات قاعدة واسعة تمثّل شرائح المجتمع كافة، نزلت إلى الشارع لتغيير النظام وهو أمر لم تتمكن قط من تحقيقه من خلال الانتخابات التي تميّزت بالتزوير. وأصرّت على الإصلاحات السياسية بدءاً بخروج النظام القائم، أي صالح وعائلته، على أن تعقب ذلك انتخابات حقيقية. وجاء ردّ صالح الأول، في مطلع شباط/فبراير، أنه سيخرج من السلطة من دون أن يخلفه أحد من ذرّيته، لكنه لن يفعل ذلك إلا بانتهاء ولايته في ٢٠١٣.والتقى الطرفان في بداية آذار/مارس عندما طرحت المعارضة، أي أحزاب اللقاء المشترك، خطتها ذات النقاط الخمس التي تدور حول تخلّي صالح عن السلطة بنهاية ٢٠١١. وأصدر المكتب الرئاسي، في الخامس من آذار/مارس، بياناً مفاده أنه لن يتزحزح عن منصبه حتى ٢٠١٣. وقبل ذلك بيومين ذكر العارفون ببواطن أمور صالح أن الخطة حازت «موافقة مبدئية»، ليعودوا من ثمّ إلى القول إنه تم «تلقّيها بإيجابية».

وتعهّد صالح، في العاشر من آذار/مارس، إعادة كتابة الدستور ومنح المزيد من السلطات للبرلمان. وستعكف مسوّدة مجموعة من الشخصيات السياسية والاجتماعية، يُفترض أن الرئيس سيختارها، على وضع مسوّدة الدستور فتُعرض من ثمّ على الاستفتاء الشعبي العام. واختصرت المعارضة ردّها بعبارة واحدة: «ارحل يا سيّد صالح. هذا مطلبنا».

عقب ارتداد ضباط رفيعي المستوى وديبلوماسيين، وتوسّع المعارضة لتضمّ صحافيين وأطباء وأكاديميين، ذكر المتحدّث باسم الرئاسة أحمد الصوفي أن صالح قال في ٢١ آذار/مارس في اجتماع مع رؤساء القبائل والضباط العسكريين وكبار المسؤولين إنه سيتخلّى عن منصبه مع نهاية السنة. وبعد ذلك بيومين بعث صالح برسالة إلى مجموعات المعارضة يقترح فيها دستوراً جديداً يعقبه استفتاء فانتخابات على أن يتم ذلك كلّه في خلال ٢٠١١. وجاء ردّ صالح على دعوات المعارضة الحازمة له بالرحيل فوراً: نعم، حسناً، ولكن... وأكد في ٢٤ آذار/مارس الاستعداد للرحيل عن السلطة لكنه لن يسلّمها إلا إلى «أياد أمينة». وليس «إلى قوى شرّيرة تتآمر على الوطن».

ومرّت ٢٤ ساعة قبل أن ينفي متحدّث باسم الرئاسة رسميّاً أن صالح سيرحل. وفي ٢٧ آذار عالج صالح المسألة شخصيّاً في اجتماعه مع قيادة المؤتمر الشعبي العام، وقال: «في وسعي ترك السلطة... حتى في غضون ساعات شرط الاحتفاظ بالاحترام والاعتبار. عليّ إيصال البلاد إلى برّ الأمان... وأنا متمسّك بالسلطة بغية تسليمها سلميّاً». ثم جاءت تقارير «الجزيرة» وغيرها بأن صالح طمأن زعماء القبائل في اجتماع معهم في وقت لاحق من اليوم نفسه، بأنه سيبقى في منصبه حتى ٢٠١٣! وسارع حزبه الحاكم إلى تأكيد وجهة النظر هذه، مضيفاً بأن صالح سيبقى في أي حال رئيساً للمؤتمر الشعبي العام. وذكرت تقارير أخرى أن صالح قد يوافق على الرحيل في ٢٠١١ لكنه طالب باستمرار سيطرته على حزبه.

قدّمت المعارضة لصالح، في الثاني من نيسان/أبريل، اقتراحاً عقلانيّاً متيناً للانتقال السلمي للسلطة.وعلى صالح، بحسب مشروعها المؤلف من خمس نقاط، تسليم السلطة إلى نائبه الذي سيعيد تنظيم مختلف الأجهزة الأمنية (جهاز الأمن الوطني، قوات الأمن المركزي، والحرس الجمهوري). وسيشارك من ثم مع أحزاب اللقاء المشترك في إنشاء المجلس الوطني الانتقالي الذي سيضمّ ممثلين عن المجموعات السياسية كافة لوضع مسوّدة دستور جديد. ويمكن، في الفترة المرحلية، لحكومة وحدة وطنية انتقالية أن تتعاطى مع التطورات الاقتصادية والسياسية الفورية.

بعد ذلك بأيام، طرح مجلس التعاون الخليجي مبادرته الخاصة التي تلاحمت مع مبادرة أحزاب اللقاء المشترك في دعوتها إلى نقل السلطة إلى نائب الرئيس وإقامة مجلس وطني انتقالي ذي تمثيل عريض يدير شؤون البلاد على مدى ثلاثة أشهر ويحضّر للانتخابات[١]. وذكر بعض التقارير أن صالح وافق عليه في اليوم التالي، سوى أن الأحداث اللاحقة جاءت لتعارض ذلك.إذ رفض صالح العرض في العلن بالرغم من احتوائه على ضمانات بتوفير حصانة الأمر الواقع له. واعتبره في حديث في ٨ نيسان/أبريل على تلفزيون الدولة بأنه «انقلاب على الديمقراطية» و«تدخّل سافر في الشؤون اليمنية». وردّاً على ذلك اجتمع في العاشر من نيسان/أبريل وزراء

(١) لخّصت "الشرق الأوسط" في ١١ نيسان/أبريل مسوّدة الاقتراح العقلاني والكريم لمجلس التعاون الخليجي.

خارجية مجلس التعاون الخليجي، الذين لم يعجبهم الأمر بالتأكيد، ودعوا صالح صراحة إلى نقل السلطة إلى نائبه وتمهيد الطريق أمام حكومة انتقالية.

ذكرت «انتيوور.كوم» *Antiwar.com* في ١١ نيسان/أبريل أن صالح أيّد اقتراح مجلس التعاون الخليجي مشترطاً أن يحصل انتقال السلطة «بطريقة دستورية». وأراد بهذه الصيغة أن يقول إن تغيير النظام لا يمكن أن يتمّ إلا بواسطة الانتخابات المقررة، كما يعرف الجميع، في ٢٠١٤! ورفضت المعارضة طرح مجلس التعاون توفير الحصانة، بيد أن هذه ليست سوى نقطة صورية باعتبار أنه سبق لصالح أن رفضها.

وجّهت المعارضة، وقد عيل صبرها حيال تقلّب صالح، إنذاراً أخيراً له وحدّدت يوم الرابع عشر من نيسان/أبريل حدّاً أقصى لتسليم السلطة، وأعطته بذلك مهلة أسبوعين. وأعطى جوابه في اليوم التالي في خطاب وجيز إلى مؤيديه. وشهّر بالمعارضة بوصفها زمرةً من «قطّاع الطرق» و«الكذبة»، واقترح عليهم الدخول في حوار معه. وقال في صنعاء: «ندعو المعارضة إلى مراجعة ضميرها والمجيء إلى الحوار للوصول إلى اتفاق على أمن البلاد واستقرارها». (كما أنه وبّخ المتظاهرين على الاختلاط بين الجنسين في انتهاك للقواعد الدينية، وهو اتهام أثار ردّاً قوياً من آلاف النساء اللواتي نزلن إلى الشوارع احتجاجاً).

لم يستسلم مجلس التعاون الخليجي، بل جدّد جهوده من أجل الوصول إلى حل. والتقى وزراء خارجية المجلس في ١٧ نيسان/أبريل شخصيات أحزاب اللقاء اليمني المعارض المشترك ومن بينهم وزير سابق للخارجية وأربعة رؤساء أحزاب. وقضى اقتراحهم بأن يخلي صالح سُدّة الرئاسة في غضون ثلاثين يوماً ويسلّم السلطة إلى نائبه. وتحدّث عن حكومة وحدة وطنية وانتخابات رئاسية في غضون شهرين. وضمت الخطة أيضاً طرد ثلاثة قادة أمنيين كبار، جميعهم من الأقارب، وهم أحمد علي عبدالله صالح وعمّار ويحيى. والأهمّ من ذلك بالنسبة إلى صالح هو أن مجلس التعاون الخليجي، وبموافقة من المعارضة، يطرح عليه الحصانة من الملاحقة القانونية.

ردّ صالح في ٢٢ نيسان/أبريل بموافقة مشروطة وهي أن يسير كل شيء «ضمن

إطار الدستور اليمني»، أي أن يستمرّ في السلطة حتى ٢٠١٣. وحمل مرّة أخرى على مناوئيه، وهو يعلن ردّه، ووصفهم «بالمارقين وبالعناصر الجبانة» واتهمهم بحياكة «المؤامرات على الحرّية والديمقراطية والتعدّدية السياسية». وبعد ذلك بيوم واحد أبلغ طارق الشامي، وهو أحد المساعدين الرئاسيين، «الجزيرة» بأن الرئيس «يوافق كليّاً» على خطة مجلس التعاون الخليجي شرط أن تحظى بتأييد من المعارضة. غير أن صالح استدار من جديد، بعد ٢٤ ساعة فقط، وسأل في مقابلة مع «بي. بي.سي». «لمن سأسلّم (السلطة) – ألأولئك الذين يحاولون القيام بانقلاب؟» وقال واعداً: «لا، بل سنفعل ذلك من خلال صناديق الاقتراع والاستفتاء. وسندعو مراقبين دوليين للإشراف».

تواصلت المهزلة في الشهر التالي. وافتُرض أن يُوقّع ١٥ ممثّلاً للطرفين، في ٦ أيار/مايو، صفقةً جديدةً لمجلس التعاون الخليجي، سوى أن صالح انسحب في اللحظة الأخيرة. وحُدّد موعد آخر في ١٨ أيار/مايو ليوقّع ممثلون عن الدولة اليمنية والمعارضة اتفاقاً رعاه مجلس التعاون. ومرّة أخرى انسحب صالح قائلاً إنه ليس هناك ما يضمن توقّف الشبّان عن التظاهر في الشوارع بالرغم من توقيع ممثلي أحزاب المعارضة. وغادر الأمين العام لمجلس التعاون، عبداللطيف الزياني، اليمن غاضباً ويمكن تفهّم سبب ثورة غضبه.

وفي ٢٢ أيار/مايو، وبعدما وقّع ممثلو المعارضة الوثيقة، اجتمع سفراء دول مجلس التعاون والولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي للمشاركة في حفل التوقيع الذي افتُرض بصالح استضافته. غير أنه، ومرّة أخرى، رفض. وتحدّث في احتفال للجيش معتبراً الاتفاق بمنزلة انقلاب، وقال إنه في حال وقّعه فستستولي «القاعدة» على البلاد.

تصاعدت التوترات في اليمن وتحوّلت إلى مواجهات مسلحة بين من تبقى من قوى لصالح والميليشيا التي يقودها صادق الأحمر رئيس اتحاد قبائل حاشد، فأشار الرئيس اليمني مرّة أخرى إلى استعداده لتوقيع اتفاق بموجب بنود صفقة مجلس التعاون الخليجي. ومرّة أخرى لم يسفر هذا الوعد عن شيء.

في أوائل حزيران/يونيو عاني صالح من إصابات هائلة وحروق بالغة عندما

قصف مقره. فرح إلى المملكة العربية السعودية لتلقي العلاج حيث أجرى عمليات جراحية متكررة، وعاد إلى اليمن في ٢٣ أيلول/سبتمبر «حاملاً حمامة السلام وغصن زيتون». وقد ترجمت وعوده بوقف إطلاق النار بتصعيدٍ هجومي مسلح ضد قوات المعارضة، والذي أسفر عن ١٠٠ قتيل. ومرة أخرى، كان تعهده الرسمي بتنفيذ خطة السلام الخاصة بمجلس التعاون الخليجي كذبة شنيعة.

قد يناقش المرء في فوائد أو نواقص الاقتراحات المرفوعة لإنهاء الأزمة، إلا أن هذه ليست المسألة. فالرئيس صالح، كما تدل على ذلك السجلات، لم يكن قادراً نفسيّاً ولا مستعدّاً للانصراف بكلّيته إلى العروض. ولو أنه تمكّن من ذلك لوَزَنَ المَع والضدّ ولَقرّر أنه ما دامت مصالحه الحيوية – سلامته المادية والذهنية وأمنه (بما في ذلك حصانته) – محميّة فمن الأفضل له الاستقالة من مركزه بكرامة والتفتيش عن مستقبله في مكان آخر. وهذا ما كان العرض السخي جدّاً من مجلس التعاون الخليجي سيضمنه له، غير أن حالته العقلية ـ النفسية منعته من قبول ذلك.

وفي تقدير أخصائيي الطب النفسي أن تردّد الرئيس الشبيه بتردّد هاملت ليس إلا تكتيكاً لكسب الوقت وحسب. فالوضع، بحسب ما اختبره ذاتيّاً، دائم التغيّر فيما عاشت أجزاء من شخصيته نزاعاً مع الأجزاء الأخرى منها. وبات، وهو سجين تمزّقه الداخلي، عاجزاً، حرفيّاً، عن اتخاذ قرار[1].

«ملك كامل»

من سمات سلوك صالح الإضافية الملحوظة في خلال الثورة رفضه الاعتراف

(١) وصف ديبلوماسيون أميركيون صالح، في ملاحظات نشرتها "ويكيليكس"، بأنه "أوتوقراطي يمني مكّار وسفيه ولا يستقر أحياناً على حالة واحدة." وتم توثيق عدم استقراره على حالة واحدة في موقف المتغيّر باستمرار في سياق الأزمة. ويمكن التكهّن بـ"مكره" من التقارير عن سلوكه المزدوج حيال العلاقات مع الولايات المتحدة. وهكذا، مثلاً، في مناقشاته مع الجنرال ديفيد بيترايوس عقب الهجوم الأميركي بالصواريخ على مواقع للقاعدة في اليمن، شدّد صالح على أن خطّه الرسمي هو أنها ليست غارات أميركية بل يمنية. وتعهّد قائلاً: سنواصل القول إننا مصدر القنابل وليس أنتم." وفي حال تم اكتشاف الذخيرة الأميركية في المواقع فسيكتفي اليمنيون بالقول إنها معدات قديمة اشتريناها من الولايات المتحدة.

بأنه يفقد سيطرته وبأن جهاز السلطة التابع له ينهار كلّه أمام ناظريه. وأمكنه، بفضل آليات الدفاع النفسية، أن ينكر حصول أي من هذا.

بدأ الأمر في أواخر شباط/فبراير عندما نأى ممثلون عن قبائل حاشد وبكيل بأنفسهم عن صالح الذي ينتمي إلى حاشد. فعقب مجزرة الجامعة في ١٨ آذار/مارس، استقال وزير السياحة فضلاً عن سفير اليمن في لبنان ونائب وزير التربية. وعند هذا الحد أقال صالح جميع أعضاء حكومته، ربّما في إجراء وقائي لمعرفته بأنهم على وشك الاستقالة جماعيّاً. واستقال سبعة سفراء آخرين في ٢١ آذار/مارس بمن فيهم رجل اليمن في السعودية ذات الأهمية الكبرى. وبعد ذلك بأيام غادر السفيران في الأمم المتحدة ولبنان إلى جانب وزيري حقوق الإنسان والشؤون الدينية ومدير وكالة «سبأ» للأنباء. وذُكر في ٢١ آذار/مارس أن خمسة سفراء يمنيين في أوروبا، في فرنسا وبلجيكا وسويسرا وألمانيا وبريطانيا العظمى، استقالوا إضافة إلى السفراء في الأردن وسورية وكوبا. وارتدّ في الوقت نفسه العميد محسن صالح ومعه جنرال وقادة ثلاث مناطق، موجّهين بذلك ضربةً قاتلةً للنظام. وشكّلت الأخبار بأن الشيخ عبد المجيد الزنداني، رجل الدين والسياسي، قد منح دعمه للمحتجّين صدمة إضافية. وأعقبت ذلك بفترة قصيرة استقالة المندوب لدى الجامعة العربية عبد الملك منصور.

انضمّ في أواسط نيسان/أبريل ضباط كبار إلى المحتجّين المبتهجين، ومن بينهم عناصر في سلاح الجو والأمن المركزي والحرس الجمهوري. بعد ذلك بأيام، في ١٨ نيسان/أبريل، كشفت «الجزيرة» عن قيام أعضاء في الحزب الحاكم بإنشاء حزب سياسي جديد. وضمّ مؤسسو التنظيم الجديد، الداعم للمعارضة، ثلاثة مسؤولين حكوميين سابقين هم وزير النقل السابق خالد الوزير ووزير السياحة السابق نبيل الفقيه ووزيرة حقوق الإنسان السابقة هدى البان وعشرين برلمانيّاً سابقاً من حزب المؤتمر الشعبي العام.

وبات على رئيس جمهورية اليمن، علي عبدالله صالح، أن يستيقظ يوماً بعد يوم على أخبار أن آلاف المواطنين يتجمعون من جديد في صنعاء وغيرها من المدن مطالبين برحيله، وأن سفراء في البلدان الأكثر تأثيراً أخذوا يتخلّون عن دعمهم

له. وبحلول ١٩ حزيران/يونيو، دعا أكثر من مئة من رجال الدين، بمن فيهم الشيخ عبدالمجيد الزنداني، وزعماء القبائل إلى رحيله وطالبوا بإجراء انتخابات جديدة. وعبّر الزعيم القبلي صادق الأحمر عن الأمر بأفضل تعبير عندما قال إن صالح «سيغادر البلاد حافي القدمين»، أي مجرّداً من أي دعم اجتماعي أو سياسي. كما تبين، أُجبر صالح على مغادرة البلاد في ظروف أكثر سوءاً بعد محاولة اغتياله في ٣ حزيران/يونيو.

وقف صالح في الرياض البعيدة، على غرار الملك لير، في الأرض العراء وسط عاصفة ذات أبعاد ضخمة. فلير لم يُجرّد من كل أبهته الملكية وأرديته المصنوعة من فرو القاقم والتاج وسوى ذلك وحسب، بل خسر أيضاً بطانته: قوات أمنه، وحراس القصر، والجميع. وخفضت بناته حاشيته من مئة إلى خمسين، ومن خمسين إلى خمسة وعشرين، ثم إلى واحد. ولم يتبق له إلا وهم السلطة والعظمة، وبأنه «كامل»، وهو وهم أدامه خادمه المخلص كنت. وبالرغم من أن لير خسر منذ زمن بعيد كل سلطة سياسية وعلى وشك أن يفقد كل دهائه، يطمئنه كنت المخلص بأنك الملك، «يا صاحب الجلالة».

وحيّا بعض الموالين المعاندين زعيمهم بهدوء بعد ظهوره على التلفزيون مرضرضاً ومكسّراً ومحروقاً. وعند عودته إلى العاصمة اليمنية حملوا السلاح في محاولة يائسة لدعم منصبه «كرئيسٍ للدولة».

الفصل السادس

النرجسي الأميركي

ليست العرب بالشعوب الوحيدة التي عانت تحت نير الزعماء المبتلين بالاضطرابات النفسية مثل النرجسية وجنون العظمة.فقد سبق لمواقع السلطة في أوروبا، وفي فترة أكثر حداثة الدول التي شكّلت فيما سبق جزءاً من الكتلة السوفياتية أو التي دارت في فلكها –وسلوبودان ميلوسوفيتش مثال على ذلك – أن شهدت حالات من المسؤولين المصابين باضطراب نفسي عميق. بل إن مثل هذه الشخصيات وصلت إلى السلطة في «العالم الحر» وأساءت استخدامها وأنزلت المعاناة بشعوبها وبالآخرين. كذلك وقع العرب ضحية لزعماء مثل هؤلاء من خارج العالم العربي، كما عانوا عواقب المشكلات النفسية الحادة للرجل الذي أصبح رئيساً للولايات المتحدة، بل أعيد كذلك انتخابه، وهو جورج و. بوش.

وسبق لبوش، حتى قبل دخوله البيت الأبيض في ٢٠٠١، أن أظهر عوارض نرجسية متنوعة، وخصوصاً وحشية قصوى في استعداده لإرسال سجناء إلى الكرسي الكهربائي ورفضه العفو أو تجميد عمليات الإعدام. وذُكر كذلك أنه شهد عمليات إعدام وبدا أنه استمتع بعمليات القتل هذه بلذة سادية كما تبيّن من الابتسامة التي علت وجهه. واستمرّ في إظهار عدم التعاطف المطلق الذي يُميّز النرجسيين والمُعتلّين اجتماعيّاً عندما أرسل لاحقاً، بوصفه رئيساً، الجنود إلى الحرب في العراق

وأفغانستان. ولم يمكن لأي تقارير إحصائية عن الإصابات القاسية التي يتعرّض لها المدنيون، بما فيها الصور المُعبّرة عن معاناة أطفال العراق، أن تثير انفعالاته، فواصل حربه المقدّسة التي يشنّها الخير ضد الشرّ وهو مقتنع بأن الله هو الذي كلّفه ذلك. والأسف الوحيد الذي اعترف به بوش علناً هو خطأ الاستخبارات المتعلّق بأسلحة صدّام حسين للدمار الشامل. بيد أنه تمسّك بأن تخليص العراق والعالم من صدام حسين يستحقّ كل تلك المعاناة والخراب.

اختبر بوش أيضاً، على غرار الحالات النرجسية التي استُعرضت في الثورة العربية، صدمة وهو طفل. وبحسب الوصف الذي ورد في اللمحة النفسية المؤثّرة التي وضعها الدكتور جاستن فرانك فإن «جورج بوش كان في السادسة من العمر عند بداية المرحلة المأسوية التي قال إنها أثمرت أولى ذكرياته الطفولية الحيّة – مرض شقيقته ووفاتها». وقد أخذ الوالدان الطفلة بعدما تم تشخيص إصابتها بسرطان الدم إلى عيادات متخصصة لتلقي العلاج، ولكن من دون جدوى. وكتب الدكتور فرانك: «غير أن الأمر الحرج هو أنه لم يتم قط إبلاغ جورج الصغير بالسبب الذي دعا إلى هذه الغيابات المفاجئة؛ لم يعرف بمرض شقيقته بل طُلب إليه فقط ألاّ يلعب مع الفتاة التي ازداد تقرّبه منها في خلال زياراتها المتقطّعة إلى المنزل». وأمضى والداه، بعد وفاتها في ١٩٥٣ في نيويورك، بعض الوقت يلعبان الغولف ثم شاركا في حفل تذكاري صغير. وبما لا يُصدّق «لم يعرف [بوش] بمرض شقيقته إلا بعد وفاتها، عندما عاد الأهل إلى تكساس حيث بقيت العائلة فيما دُفن رفات الطفلة في قطعة أرض تملكها العائلة في كونيتيكت. ولم يجر أي مأتم». وكان لغياب الحداد تأثيره المُدمّر(١).

واجه بوش أيضاً مشكلات جدّية في القراءة والتعلّم وهو طفل، مع عوارض تناذر

(١) Frank, Dr. Justin, Bush on the Couch, HarperCollins, 2004. شرح الدكتور فرانك الوقع النفسي لوفاة الشقيقة وخصوصاً طريقة تعامل العائلة مع هذه الوفاة. "يتعلّق الأمر بأنه لم يتمكّن قط من الحداد، وعندما لا يتمكن المرء من الحداد لا يمكنه أن يتحد مع حياته الداخلية... فالحزن فيتامين النمو وما لم تواجه من أنت عليه وما خسرته، لا يمكنك حقّاً تنظيم ذهنك. وما يحصل إذاً هو أنك عندما تكون المولود البكر ويتوفّى من جاء بعدك، يتركك الأمر مع الكثير من العداء غير المُعالج والغضب والذنب وربما رغبات لديك في القتل." .EIR, August 20, 2004

قصور في الانتباه Attention Deficiency Syndrome استمرّت عند المراهقة، ومن هنا صعوباته الشهيرة في التلفظ بجمل مفهومة. وأصيب بعقدة نقص عويصة وخصوصاً تجاه والده، الشخصية العامة المشهورة جدّاً، وكذلك تجاه شقيقه ووضع ذاته نفسيّاً في منافسة معهما. وأظهر ساديّته في سنّ مبكرة مستمتعاً بتعذيب حيوانات صغيرة مثل الضفادع.

ولّدت وفاة شقيقته، التي يعترف بأنها أهمّ حدث في حياته، خوفاً متأصّلاً جدّاً في الطفل. وتطوّر بوش، في تحليل الدكتور فرانك، إلى نرجسي مصاب بحالة قصوى من جنون الارتياب كوسيلة لمعالجة قلقه. وأضحى إدمان الكحول وسيلةً أخرى – وذلك كلّه في محاولة لصدّ القلق أو السيطرة عليه. وشكّلت الفكاهة الرخيصة، التي أشار إليها بوصفها «تهريجاً»، خدعة أمكنه أيضاً استخدامها للدفاع عن نفسه حيال ما يرى فيه تهديداً، كما في سياق المقابلات الصحافية على سبيل المثال. ونشر عناصره الأمنيين ليحرصوا على غربلة الحضور في أي مناسبة لضمان عدم تسليط الضوء عليه في العلن. وشرح فرانك أن من شأن أي معارضة مباشرة لسلطته أن تصيبه بنوبة.

وحصل هذا في مناظرته التلفزيونية الأولى في ٢٠٠٤ عندما شكّك جون كيري في كفاءة بوش بقوله إنه ارتكب أخطاء ما كان والده ليرتكبها بتاتاً. وبالنظر إلى العلاقة التنافسية مع بوش الأب أصبح [جورج دبليو]، بحسب ما ذكره الدكتور فرانك في إحدى المقابلات «متراخياً كلّياً وقاصراً». وجوابه الوحيد كان، «أعرف بالتأكيد الفارق بين صدّام حسين وبن لادن»، وهو إعلان غير مترابط يكشف عن حالة قلقه وخوفه من الإذلال. وهناك مثل آخر يذكره الدكتور فرانك عن عدم قدرة بوش على التفكير، وخصوصاً تحت الضغط، وهو ردّة فعله على سؤال مرتجل لأحد الصحافيين: «كيف لم نتمكن من القبض على بن لادن؟» وجاء الجواب: «لأنه يختبئ!»

وعمد بوش، على غرار الشخصيات السياسية الأخرى المبتلية بهذا الخلل، إلى تقسيم العالم وشعبه إلى فئتي الخير والشر بالأبيض والأسود. واعتبر، خصوصاً عقب هجمات ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ الإرهابية، أن مهمته الشخصية تقتضي هزم الشر، أي الإرهاب، وأن على كل مواطن أن يختار معسكره، وأن يصبح «إما معي وإما

ضدّي». ويحلّل الدكتور فرانك هاجس بوش في السعي إلى «الحرّية» بوصفه في الحقيقة إسقاطاً، أي إنه «يريد التحرر من القلق»[1]. ودفع به التحوّل الديني الذي اختبره وهو يتخلّى عن الكحول إلى الاعتقاد بأنه يتلقّى تعليماته من الله. وذكر أن الله طلب إليه مقاتلة القاعدة وهو ما فعله، ثم طلب إليه الله محاربة صدام حسين، وهو ما فعله أيضاً. وشعر بوش، بتمتعه بالسلطة الممنوحة له من مثل هذه المواقع الرفيعة، بأنه فوق القانون ويمكنه بالتالي انتهاك الشرائع الدولية المتعلّقة بالتعذيب أو بجرائم الحرب إضافة إلى تمزيق الدستور الأميركي وإصدار أوامر تنفيذية بدلاً منه.

وبالرغم من أن الأمر لا يُقارن في الشكل بالأنظمة التسلّطية في ليبيا ومصر أو سورية، شهدت الولايات المتحدة في عهدي بوش تقييداً لا سابقة له للحريات المدنية، بما في ذلك إجراءات مراقبة الأميركيين التي تذكّر بالدول البوليسية. ومرّة أخرى بُررت مثل هذه الإجراءات بالحرب على الإرهاب.

سيّدة أميركا، سارة بالين

تألّف جمهور الناخبين الذي سمح لبوش بكسب الانتخابات في غالبيته الساحقة من الأصوليين المسيحيين الذين يُقدّر بأنهم يشكلون غالبية القاعدة الانتخابية للحزب الجمهوري. وقد تجسد جاذبه لهذا القطاع من السكان، الذين يعرفون أيضاً بالمسيحيين الصهاينة بسبب تفسيرهم المتزمّت للعهد القديم، في تديّنه العميق المزعوم وفي التزامه الحملة الصليبية المقدّسة ضد «محور الشر» ومن ينتسبون إليه من الإرهابيين. وصاغت هذه القاعدة الاجتماعية، منذ انتخابات ٢٠٠٨، حركة جديدة تُعرف باسم «حفلة الشاي»، ذات الجذور العميقة في الحزب الجمهوري وقد وجدت صوتاً جديداً لها في شخص سارة بالين.

أخذت السيدة بالين، التي كانت شريكة جون ماكين في حملة ٢٠٠٨ الرئاسية الأميركية، في الظهور كشخصية وطنية تحمل كل معالم الاختلال في الشخصية النرجسية التي تمّت مراجعتها حتى الآن. غير أن لنرجسيتها نكهة أميركية مميزة.

(١) EIR, February 4, 2005.

فشخصية بالين العظمى غير معروضة في تماثيل كبيرة أو في الملصقات في الأماكن العامة، بل في صورة كفاحها المستمر للسيطرة على الطبيعة المتوحشة. وتظهر سارة، في برنامجها التلفزيوني الواقعي الذي يُعرض في وقت الذروة أيام الآحاد، مع عائلتها في مواجهات مختلفة مع قوى الطبيعة. وأظهرتها إحدى الحلقات، على سبيل المثال، وهي تتسلّق مع زوجها تود نهراً جليديّاً في جبل كنلي. وكافحت، وهي مجهّزة بالحبال ويحثّها دليل موجود فوقها، لتركيز قدم بعد قدم على الصخر لكنها تفشل في الحصول على موطئ، وتصرخ في استرحام يائس: «يا إلهي. ساعدني يا رب!» يتبعه «أنا خائفة... يا يسوع المقدّس!» وتتابع ساره تسلّقها، فيما مشاهدو التلفزيون يمضغون رقائق البطاطا ويرتشفون البيرة، يشهقون جزعين، إلى أن تنجح بعد ذلك بوقت طويل في بلوغ القمة. فانتصارها هو انتصار قوة الإرادة المحض ويعبّر عن قناعتها بأن في وسع المرء التغلّب على أي عائق إذا بذل ما يكفي من الجهد العظيم. هذا هو قانون إيمان اعتماد الشخص الحرّ على الذات.

تأخذ سارة، في حلقة أخرى، ابنتها بريستول في رحلة لصيد السمك في هومر، عاصمة صيد الهلبوت في ألاسكا. وشكّلت ابنتها التي رُزقت طفلاً غير شرعي ومُنيت بزواج فاشل، هدفاً «للصحافة الليبرالية» التي تشكّل صورة العدو المفضّلة لبالين. وهكذا اعتقدت سارة أنها ستلقّن ابنتها كيفية الاعتماد على الذات. وذهبتا أولاً إلى حقل للرماية لممارسة السكيت. وبالرغم من أن بريستول لم يسبق لها أن أطلقت النار من بندقية، أقنعتها والدتها بأن في وسعها ذلك بالمواظبة. وفي كل مرّة تسدّد بريستول وتطلق النار وتخطئ الهدف، تكرّر والدتها: «لا تنسحبي، أعيدي التذخير». وتنصاع بريستول للأوامر، وبعد المحاولة تلو المحاولة انتهى بها الأمر إلى إصابة الحمامة الفخّارية وسط الهواء، ليتبع ذلك ابتهاج عام.

وتبيّن أن عبارة «لا تنسحبي، أعيدي التذخير»، هي التعليمات التي وجّهها إليها والدها وهي طفلة تتعلّم استخدام الأسلحة. وقال في مقابلة مع «الصن» إنها «بدأت باستخدام البندقية وهي في الثامنة. واصطادت حيوانها الأول وهي في العاشرة. كان طريدة صغيرة، ربما أرنباً. لكن لن يطول بها الأمر قبل أن تنخرط في أمور أكبر. وتابع: «إنها فعلاً رامية ماهرة. علّمتها صيد الموظ وسلخه، وصيد السمك والطرائد».

والفكرة من وراء ذلك هي أيضاً الاعتماد على النفس، وهو مذهب تعتنقه مجموعات كاملة في الولايات المتحدة تعيش في الأرياف النائية وتعتمد فقط على ما تجنيه أيديها للحصول على الطعام للبقاء.

نعود إلى الحلقة مع بريستول: فبعدما نجحت الابنة في اصطياد حمامة فخارية رافقتها والدتها في مركب لإلقاء الشبك واصطياد الهلبوت. وعندما نجحت بريستول من جديد، بعد عدة محاولات فاشلة، في الإمساك بسمكة، توجّب عليها سحبها إلى ظهر المركب وطرحها في وعاء مليء بالثلج. وهناك تمسك بما يشبه مضرب كرة القاعدة الهائل الحجم لـ«صعق» السمكة وإفقادها الوعي، بحيث يمكن بعد ذلك سلخها بأن تمسك بالسكين، متبعة مثال والدتها، وتذبح السمكة اللعينة.

وبحسب الأدب المختص، لا يحصل التعظيم النرجسي، أو الرضى من مثل هذا الإنجاز، إلا عندما ينجح الشخص في مسعاه من خلال قوة الإرادة المحض. وكتب فيتوريو هوسل: «يستمتع المرء المدرك لذاته بنجاحاته في فرض إرادته ليس بسبب نتائجها وحسب بل أيضاً بوصفها غاية في ذاتها. وهكذا يختبر الرجل (أو المرأة) حجم المعارضة التي اضطرّ إلى التغلّب عليها –ويرتبط الأمر، في حالة الصيد على سبيل المثال، بمدى خطورة الحيوان الذي يُقتل»[1]. وسارة، كما لاحظ ذلك والدها، ماهرة في قتل الموظ حتى وهي طفلة. ويمكن للموظ أن يكون حيواناً خطراً جدّاً:

ذكرت في كتابها «أميركا عن ظهر قلب» *America by Heart* أن والديها ربّيا أولادهما على أن يتعلّموا من التجربة «خلقية العمل الرائدة» والاتكال على النفس النموذجيين في ألاسكا وهي الجزء من أميركا الذي ترعرعت فيه. وهكذا تعلّمت ساره صيد الطرائد والسمك وتقطيع الخشب للتدفئة وزرع الخضر. وحضرت إلى جانب ابنتها وهي تضع مولودها وأدت دور القابلة. وطرحت سارة نفسها العظيمة بوصفها المثال الذي يُحتذى «للجيل الجديد من النساء الأميركيات القائدات»، اللواتي أسمتهن «الأمهات الدببة البنّيات» Mama Grizzlies. والأم الدبة البنية هي

---

(١) Hösle, V., Morals and Politics. Notre Dame: University of Notre Dame Press, 2004, cited in Wirth, Hans-Jürgen, Narcissism and Power: Psychoanalysis of Mental Disorders in Politics, Psychosozial-Verlag, Giessen, 2009, p. 73.

الأنثى التي عليها حماية ذرّيتها؛ وهذه الدببة « كائنات جميلة، ضارية، وخطيرة مثل الذبحة القلبية». وكتبت أنه «إذا مررتَ بواحدة منها فلا تعانقها. بل سِرْ بهدوء. لأنها ما إن يحم الخطر على أحبائها حتى تثور». وشرحت أن هذا النوع من النساء ليس في الواقع جديداً بل لطالما شكّل جزءاً من الثقافة الأميركية. «إنهن النساء أنفسهن اللواتي استوطنّ الحدود، وقدن العربات، وحرثن الحقول، ورعين المواشي، وعلّمن أولادهن، وربيّن عائلاتهن – وحاربن من أجل حقوق المرأة»[١].

كانت حاجة بالين إلى الانتباه والاستحسان هي التي دفعتها إلى دخول معترك السياسة. وقد اقتحمت الساحة العامة بثقة عندما ترشّحت في ٢٠٠٨، بالرغم من كونها مبتدئة ولا تمتلك خبرة في السياسة الخارجية ناهيك بالمعرفة. ومزجت بانشراح جهلها مع غرورها، بما هو نموذجي في الثقافة السياسية الأميركية، وطرحت نفسها بوصفها شخصاً يمكنه قيادة أميركا والعالم الحر. وحذّرت في مقابلة في سياق الحملة مع تشارلز غيبسون على «آي. بي.سي». من أنه «علينا إبقاء أعيننا على روسيا، في ظل الزعامة الموجودة هناك». وشددت على موقع المراقبة الفريد الذي تملكه للقيام بذلك لأنها تعيش في جونو في ألاسكا، حيث «يمكنك في الواقع رؤية روسيا من هناك». وبالتالي «علينا إبقاء أعيننا على روسيا».

وشدّدت بالين على وجوب «إطلاق» الولايات المتحدة «في مهمتها»، أي مهمة كسب الحرب على الإرهاب أو أي حروب أخرى يجب خوضها. وأحد النزاعات المحتملة التي أشارت إليها هو النزاع مع روسيا؛ فلو أن جورجيا انضمت إلى حلف شمال الأطلسي، كما اقترحت هي وماكين ذلك، وإذا هاجمت روسيا جورجيا فعلى الولايات المتحدة عندئذٍ التدخل عسكريّاً. وهي لا تريد أيضاً تجنّب الحرب على إيران.

(١) Palin, Sarah, America by Heart: Reflections on Family, Faith, and Flag, HarperCollins New York, 2010, pp. 96, 127-128, 144, 128-129. Her first book was Going Rogue: An American Life, Harper, New York, 2009. ويذكّر مبدأ بالين الاعتماد على الذات، وعبادتها الاستثنائية الأميركية، وتحدّيها لقوى الطبيعة بإيديولوجية الفاشي الإيطالي – والنرجسي –بينيتو موسوليني في العشرينيات والثلاثينيات. وتعلّق الأمر بالنسبة إلى موسوليني بمبادئ الاكتفاء الذاتي، القومية الإيطالية والرجولة، الراسخة في سياق ثقافي مختلف ولكنه مشابه على نحو لافت.

وبالين أصولية مسيحية، على غرار جورج بوش، وعضو في «جماعة الله» في واسيلا مذ كانت في العاشرة، وقد أعيد تعميدها هناك بعد ذلك بسنتين. وشرعت، منذ أضحت حاكمة ألاسكا، تشارك في كنيسة جونو المسيحية وارتبطت بما يُسمّى «حركة الموجة الثالثة» التي تتضمن بنيتها الإيمانية القناعة بأن مع حلول نهاية الأزمنة ستتولّى مجموعة من المسيحيين، بتأثير من قوى خارقة للطبيعة، الكنيسة والعالم. كذلك ترى بالين أنه أنيطت بألاسكا مهمة إلهية: وأعلنت في فيديو عنوانه «تحوّلات» أن «الله قدّر أمراً لألاسكا»، وهي أن تصبح الملاذ الأخير لجميع الأميركيين عندما تأتي نهاية الأزمنة[١].

ولنرجسيتها على وجه التحديد نكهة ثقافية أميركية. فهي، وفي شكل من أشكال إسقاط ذاتها العظمى على العالم ككل، متعبّدة لمفهوم «الاستثنائية الأميركية»، فكرة أن أميركا أمر فريد من نوعه في العالم وبالتالي أفضل من أي أمة أخرى – وبالرغم من نفيها بالتحديد أنها «أفضل» لكنها تشكّل مع ذلك «نموذجاً يُحتذى» للأمم الأخرى كافة. ولم تخترع بالين لا المفهوم ولا الاسم، لكنها شكّلت من حولهما حركة سياسية وعبادة للشخصية تدور حول شخصها بوصفها قائدة الحركة. وكتبت في معرض حديثها عن العراق التي حارب ابنها فيها:

«وسيكفي كوننا بلداً عاديّاً – مجرّد بلد من بين بلدان أخرى. فلكل الدول الحق في الدفاع عن نفسها وهي تمارس هذا الحق كلّما دعت الحاجة إلى ذلك. غير أن أميركا ليست مجرّد بلد آخر. فنحن البلد الوحيد في تاريخ العالم الذي بني على فكرة وليس على مساحة أرضية معينة أو ثقافة أو شعب. ومفاد هذه الفكرة أن لجميع الكائنات البشرية الحق في الحرّية التي هي هبة من الله»[٢].

تُشير بالين إلى الزعيم البروتستانتي المتزمت جون وينثروب عندما تحدّث إلى أتباعه في ١٦٢٠ عن أميركا بوصفها «نور العالم» و«مدينة على جبل»، وهما آيتان منسوبتان إلى المسيح في إنجيل القديس متّى. وترى بالين في أميركا «قوّة خير،

(١) Mirak-Weissbach, Muriel, The Republicans' Subliminal Ticket: Will American Voters be Hoodwinked?, Global Research, September 17, 2008.

(٢) Palin, Op. cit., p. 37.

ليس لشعبها وحسب بل للعالم أيضاً». ومن بين المزايا الأخرى التي تنسبها إلى استثنائية أميركا «إيماننا بالأسواق الحرّة وبالعمل الشاق على الطريقة الأميركية القديمة وبالإبداع»[١].

وكما أن أميركا مميزة في العالم، فإن ألاسكا مميّزة في أميركا، وهي متميّزة في ألاسكا. ودوّنت في كتابها أفكاراً راودتها في أحد الأيام وهي في الحادية عشرة وتراقب مناظر الطبيعة الرائعة والجبال. وهي في الأساس رواية عن تجربتها الدينية كمسيحية مولودة من جديد: «سرت إلى الخارج ونظرت إلى جبال تشوغاش من جهة وجبل ماكنلي من الأخرى وطرأ على ذهني: إذا عرف الله ما هو فاعله عندما خلق ألاسكا، فقد امتلك بالتأكيد فكرة ما في ذهنه عندما خلق ذرّة مثلي. وعندئذ أدركت أن لله بالتأكيد غرضاً لكل منّا... ووضع، من ذلك اليوم وصاعداً، حياتي في أيدي الله. وشعرت بأنني وُلدت من جديد ومضيت قدماً..»[٢].

هذه الدعوة الإلهية هي ما يجعل الاستثنائية الأميركية متميّزةً إلى هذا الحد بالنسبة إلى بالين. «هذه النزعة الطبيعية إلى طلب التوجيه والبركة من خالقنا تجعلنا فريدين من نوعنا بين الأمم الغربية»، ومختلفين كذلك عن الاتحاد السوفياتي الذي كان ملحداً، ومختلفين عن أوروبا التي تعتقد «بحق الملوك الإلهي»، وما سوى ذلك. وختمت أن «الحرّية الممنوحة لنا من الله تشكّل المبدأ الاستثنائي في قلب هذه الأمة الاستثنائية. وهذا هو أيضاً سبب امتلاكنا دوراً خاصاً نؤديه في العالم»[٣].

وبالين، على غرار الشخصيات النرجسية التي نصادفها في العالم العربي، كمثل ليلى بن علي طرابلسي، امرأة طموح ومتعطشة إلى السلطة تسعى إلى الثراء المالي بالإضافة إلى الإعجاب العام والشهرة. وتخلّت عن موقعها كحاكمة لألاسكا في خطوة رأت فيها الولاية أنها لا تحمل الكثير من التبرير السياسي، وسعت إلى دور بارز في السياسة الوطنية بوصفها حاملة لواء «حفلة الشاي». وظهرت بانتظام كمعلّقة سياسية على قناة «فوكس»، التلفزيون الناطق باسم اليمين الأميركي الراديكالي،

(١) المصدر السابق، ص. ٦٤، ٦٧، ٨٠.
(٢) المصدر السابق، ص. ١٨١-١٨٢.
(٣) المصدر السابق، ص. ١٩٠، ٢١٢، ٢٦٥.

إضافة إلى إطلاقها برنامج الواقع الخاص بها، فكوّنت جماهير من الأتباع ما ضمن لها أيضاً أن يحقّق كتاباها نجاحاً تجاريّاً. ومع صدور كتابيها جالت بالين عبر أنحاء البلاد في جولات سوّقت فيها الكتابين ووسّعت قاعدة دعمها بين الجماهير الكثيرة الاطراء، وخصوصاً النساء، التي تقف بالصف لساعات للحصول على توقيع على الكتاب. وكسبت أيضاً الكثير من المال من مثل هذه النشاطات، وهو مال قد تحتاج إليه لتمويل خزانة ثيابها التي اشتهرت بثمنها الباهظ.

صقلت سارة بالين، يدعمها في ذلك فريق متمرّس وقادر من محترفي العلاقات العامة، صورتها لتُرجع صدى بعض السوابق في التجربة السياسية الأميركية. وتركت أثراً لدى الجمهور في حملتها في ٢٠٠٨ من خلال صورة الفتاة الأميركية الطيبة القديمة الطراز التي تمثّل جميع الأميركيات: «أميركية كفطيرة التفاح؛» وهي الفتاة التي تتحاشى استخدام اللغة الخشنة، الفتاة المؤدبة الجميلة المتحدرة من عائلة أميركية نموذجية، وما سوى ذلك. وتستحضر، بالنسبة إلى الأميركيين ممن هم في عمر يسمح لهم بالتذكّر، ذكرى ديبي رينولدز، نجمة الخمسينيات السينمائية الشهيرة التي أبرزت الصورة التي تمثّل الفتاة الأميركية. فبالين، على غرار رينولدز، تأهلت في مسابقات الجمال واستنسخت إطلالتها إضافة إلى تسريحة شعرها. إلا أن «الشكل» ليس هو المهم، بل الأهم الذي يجب أخذه في الاعتبار هو أن الخمسينيات شكّلت أيضاً حقبة الحرب الباردة عندما نشرت الثقافة الشعبية، من الأفلام إلى المسلسلات التلفزيونية، صورة الأميركيين الطيبين الأطهار الذين يحاربون دعماً لمبادئ الحرية في مواجهة الشيوعيين الأشرار الذين لا يحكمون الاتحاد السوفياتي والصين وحسب بل يهدّدون أيضاً بالتغلغل في الولايات المتحدة كما توثّق ذلك محاكمات مكارثي. وهي الحقبة التي، كما اليوم، قُسّم فيها العالم بين الخير والشرّ. وإذا نُظر يومئذ إلى النزاع بوصفه يدور بين الحرية والشيوعية، فإنه بالنسبة إلى بالين نزاع بين الحرية و»الاشتراكية» (التعبير الذي تستخدمه للإشارة إلى الفلسفة الليبرالية الأميركية)، وبين حقوق الدولة والحكومة الكبرى، وبين الوطنيين الأميركيين الفخورين وليبراليي الشاطئ الشرقي، وبين «أخبار فوكس» والصحافة اليسارية، الخ[1].

(١) Mirak-Weissbach, Op. cit.

حاولت ساره بالين الوصول إلى السلطة السياسية لكنها لم تحصل على الأصوات اللازمة لذلك، إلا أنها لم تتخل عن طموحاتها لبلوغ القيادة الوطنية والثروة والسلطة. ولأن الشعب الأميركي انتخب مثل هذه الشخصية غير المستقرة والمضطربة التي هي جورج و. بوش، بل وافق أيضاً على ولايته الثانية، يحكي الكثير عن الجانب غير الصحي للثقافة السياسية الأميركية. ولا يتعلّق الأمر بالنرجسية لدى هؤلاء الأشخاص وحسب، بل بنرجسية الثقافة الشعبية أيضاً. وعلى ما ذكره أحد الأميركيين في معرض حديثه عن «حفلة الشاي»: «لليعاقبة الجدد اثنان من الملامح الكلاسيكية الأميركية التي ازدادت حدّة في العقود الأخيرة: ريبة تامة من المؤسسات وثقة مدهشة –لا مبرّر لها – بالنفس»، أو ما يمكن القول إنها النفس العظمى[1].

(١) Lilla, Mark, The Tea Party Jacobins, in The New York Review of Books, May 27-June 9, 2010, p.54.

الفصل السابع

الحاكم الصالح

تقدّم منهجية التحليل النفسي المعاصرة مساعدةً جمّةً على فهم ديناميات ذهان الزعامة. لكن، ومن سوء الحظ، لا يوجد سوى القليل جدّاً من المحللين النفسيين وعلماء النفس الذين عالجوا المسألة الوضعيّة البديلة: كيف تتحقق القيادة السليمة؟ وكيف يمكن للمجتمع أن ينظّم نفسه بطريقة تولّد حكّاماً أخلاقيين وأكفاء منقطعين لتعزيز الخير العام؟

ومن حسن الحظ أن ثمة بعض الاستثناءات، فهناك أوتو كرنبرغ الذي حدّد خمس مزايا شخصية هامة ومرغوبة تتطلّبها الزعامة العقلانية وهي: ١) الذكاء، ٢) الصدق الشخصي والاستقامة، ٣) القدرة على إقامة علاقات شخصية مكثّفة والحفاظ عليها، ٤) نرجسيّة صحّية، ٥) موقف ارتيابي استباقي صحّي يعني (أو

يشكّل) نقيض السذاجة[1]. وعلى السياسي الجيّد، في رأي عالم الاجتماع، ماكس فيبر، أن يكون شخصاً منقطعاً بشغف لقضيّة ما. وطرح التحدّي الذي يواجه الزعيم السياسي بهذه العبارات:

«كيف يمكن صوغ العاطفة الحارة والإحساس البارد معاً بالتناسب في الروح الواحد نفسه؟ فالسياسة يصنعها الرأس وليس أي طرف آخر من أطراف الجسد أو الروح. ويمكن، نعم، للانقطاع للسياسة أن يولد ويتغذّى بالشغف لوحده، حتى لا يشكّل مناورة ذهنية عابثة بل بالأحرى سلوكاً إنسانيّاً حقيقيّاً. بيد أن هذا الترويض الحازم للنفس، الذي يميّز السياسي الشغوف [...] غير ممكن إلاّ من خلال تعوّد النزاهة بكل ما للكلمة من معنى. وتعني 'قوة' الشخصية السياسية، في المقام الأول، امتلاك مزايا الشغف والمسؤولية في هذا الشكل المتناسب»[2].

وللبحث عن الزعامة الخلقية في السياسة تاريخ طويل فاتن. فمن الصين القديمة والهند، إلى اليونان الكلاسيكية، ومن خلال النهضة العربية إلى أوروبا، ناقش الفلاسفة ورجال الدولة هذه المسألة بشغف، واقترحوا حلولاً قابلة للتطبيق. وعلينا، من دون أي بيان تفصيلي لهذا النقاش الفلسفي/السياسي، النظر في عمل أصيل من

(١) Kernberg, Otto F., Ideologie, Konflikt und Führung: Psychoanalyse von Gruppenprozessen und Persönlichkeitsstruktur, Klett-Cotta,Stuttgart, 2000, Aus dem Amerikanischen von Elisabeth Vorspohl, Ideology, Conflict and leadership in Groups and Organizations, Yale University press, New Haven/London, 1998, p. 63. يعرض ويرث معايير كرنبرغ (Sanctioned Social Violence, in International Journal of Psychoanalysis 84, 2003, pp. 683-698) كالتالي: "١. ذكاء خارق يسمح للزعيم بتطبيق الفكر الاستراتيجي البعيد المدى على التشخيص، والصياغة والتواصل، وتطبيق متطلبات المهمة من ضمن القيود التي تفرضها؛ ٢. ما يكفي من النضج الانفعالي والعمق الإنساني بما يمكنه من تقويم شخصية الآخرين واختيار القادة التابعين له وتفويضهم السلطة المناسبة؛ ٣. نزاهة خلقية تحمي الزعيم من الإغراءات المحتومة المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بممارسة السلطة ومن الضغوط المفسدة لبطانته؛ ٤. ميول نرجسية على درجة كافية من القوة ليتمكن من الحفاظ على احترام الذات في مواجهة الانتقاد الحتمي وهجمات الأتباع، ولتفادي الاعتماد على الأتباع لتحقيق الحاجات النرجسية المفرطة؛ ٥. مزايا ارتيابية كافية – على نقيض السذاجة – لتشخيص باكر للاتجاهات الخفية المتناقضة والمعادية المحتومة في التنظيم التي تعبّر عن الأوجه الامتعاضية والتمردية والحاسدة للعدوانية الموجهة صوب الزعامة."

(٢) Weber, Max, Politics as a Vocation (1919), http://www.ne.jp/asahi/moriyuki/abukuma/weber/lecture/politics_vocation.html.

أعمال الأدب العربي حول هذا الموضوع، وهو الدراسة اللامعة للفارابي في كتابه «المدينة الفاضلة». والمقتطف القصير التالي يتضمّن تصوّره للرئيس الفاضل – الخصال الذهنية والجسمانية التي يجب على المرء امتلاكها لتوفير القيادة لشعبه في السعي إلى العدالة والمصلحة العامة. وهو يمثّل أفضل ما في الإرث العربي من نظريات في العلم السياسي. ومن المرغوب فيه، عقب الثورات العربية المستمرة، رؤية زعامة جديدة تخرج من عملية إطلاق النهضة العربية –تعيد إحياء فلسفة مفكرين عظام كالفارابي وعلمهم السياسي.

القول في خصال رئيس المدينة الفاضلة:

«فهذا هو الرئيس الذي لا يرأسه إنسان آخر أصلاً. وهو الإمام، وهو الرئيس الأول للمدينة الفاضلة، وهو رئيس الأمة الفاضلة، ورئيس المعمورة من الأرض كلّها. ولا يمكن أن تصير هذه الحال إلا لمن اجتمعت فيه بالطبع اثنتا عشرة خصلة قد فُطر عليها:

ـ أحدها أن يكون تام الأعضاء، قواها مؤاتية أعضاءها على الأعمال التي شأنها أن تكون بها؛ ومتى همّ بعضو ما من أعضائه عملاً يكون به فأتى عليه بسهولة؛

ـ ثم أن يكون بالطبع جيّد الفهم والتصوّر لكل ما يقال له، فيلقاه بفهمه على ما يقصده القائل، وعلى حسب الأمر في نفسه؛

ـ ثم أن يكون جيّد الحفظ لما يفهمه ولما يراه ولما يدركه، وفي الجملة لا يكاد ينساه؛

ـ ثم أن يكون جيّد الفطنة، ذكيّاً، إذا رأى الشيء بأدنى دليل فطن له على الجهة التي دلّ عليها الدليل؛

ـ ثم أن يكون حسن العبارة، يؤاتيه لسانه على إبانة كل ما يُضمره إبانة تامة؛

ـ ثم أن يكون محبّاً للتعليم والاستفادة، منقاداً له، سهل القبول، لا يؤلمه تَعَبُ التعليم، ولا يؤذيه الكدّ الذي ينال منه؛

ـ ثم أن يكون غير شره على المأكول والمشروب والمنكوح، متجنّباً بالطبع للعب، مبغضاً للّذات الكائنة على هذه؛

ـ ثم أن يكون محبّاً للصدق وأهله؛

ـ ثم أن يكون كبير النفس، محبّاً للكرامة: تكبر نفسه بالطبع عن كل ما يشين من الأمور، وتسمو نفسه بالطبع إلى الأرفع منها؛

ـ ثم أن يكون الدرهم والدينار وسائر أعراض الدنيا هيّنة عنده؛

ـ ثم أن يكون بالطبع محبّاً للعدل وأهله، ومبغضاً للجور والظلم وأهلهما، يعطي النصف من أهله من غيره ويحثّ عليه، ويؤتي مَن حلّ به الجور مؤاتياً لكل ما يراه حسناً وجميلاً، ثم أن يكون عدلاً غير صعب القياد، ولا جموحاً ولا لجوجاً إذا دعي إلى العدل، بل صعب القياد إذا دعي إلى الجور وإلى القبيح؛

ـ ثم أن يكون قويّ العزيمة على الشيء الذي يرى أنه ينبغي أن يُفعل، جسوراً عليه، مقداماً غير خائف، ولا ضعيف النفس؛

واجتماع هذه كلّها في إنسان واحد عسر، فلذلك لا يوجد من فطر على هذه الفطرة إلا الواحد بعد الواحد، والأقل من الناس. فإن وجد مثل هذا في المدينة الفاضلة ثم حصلت فيه، بعد أن يكبر، تلك الشرائط الستّ المذكورة قبل أو الخمس منها دون الأنداد من جهة المتخيّلة كان هو الرئيس. وإن اتفق أنه لا يوجد مثله في وقت من الأوقات، أخذت الشرائع والسُّنن التي شرعها هذا الرئيس وأمثاله، وإن كانوا توالوا في المدينة، فأثبتت. ويكون الرئيس الثاني الذي يخلف الأول من اجتمعت فيه من مولده وصباه تلك الشرائط، ويكون بعد كبره، فيه ست شرائط:

ـ أحدها أن يكون حكيماً؛

ـ والثاني أن يكون عالماً حافظاً للشرائع والسنن والسِيَر التي دبرها الأولون للمدينة، محتذياً بأفعاله كلها حذو تلك بتمامها؛

ـ والثالث أن يكون له جودة استنباط فيما لا يُحفظ عن السلف فيه شريعة، ويكون في ما يستنبطه من ذلك محتذياً حذو الأئمة الأولين؛

ـ والرابع أن يكون له جودة رويّة وقوة استنباط لنا سبيله أن يعرف في وقت من الأوقات الحاضرة من الأمور والحوادث التي تحدث مما ليس سبيلُها أن يسير في الأولين، ويكون متحرّياً بما يستنبطه من ذلك صلاح حال المدينة؛

ـ والخامس أن يكون له جودة إرشاد بالقول إلى شرائع الأولين، وإلى التي استنبط بعدهم مما احتذى فيه حذوهم؛

ـ والسادس أن يكون له جودة ثبات ببدنه في مباشرة أعمال الحرب، وذلك يكون معه الصناعة الحربية الخادمة والرئيسة.

فإذا لم يوجد إنسان واحد اجتمعت فيه هذه الشروط ولكن وجد اثنان، أحدهما حكيم، والثاني فيه الشرائط الباقية، وكانت الحكمة في واحد والثاني في واحد والثالث في واحد والرابع في واحد والخامس في واحد والسادس في واحد، وكانوا متلائمين، كانوا هم الرؤساء الأفاضل. فمتى اتفق في ما أن لم تكن الحكمة جزء الرياسة وكانت فيها سائر الشرائط، بقيت المدينة الفاضلة بلا ملك، وكان الرئيس القائم بأمر هذه المدينة ليس بملك. وكانت المدينة تعرض للهلاك. فإن لم يتفق أن يوجد حكيم تضاف الحكمة إليه، لم تلبث المدينة بعد مدة أن تهلك»[1].

(١) الفارابي، "المدينة الفاضلة"، الفصل الثامن والعشرون.



المراجع

Amin, Galal, Egypt in the Era of Hosni Mubarak 1981-2011, The American University in Cairo Press, Cairo, New York, 2011.

Ayoub, Mahmoud Mustafa, Islam and the Third Universal Theory: The religious thought of Ma'ammar al-Qadhdhafi, KPI, London, New York and Sydney,1987.

Beau, Nicolas et Catherine Graciet, La Regente de Carthage: Main Basse sur la Tunisie, La Decouverte, Paris, 2009.

Bben Chrouda, Lotfi, Avec la collaboration de Isabelle Soares Boumalala, Dans l'ombre de la reine, Editions Michel Lafons, Neuilly-sir-Seine Cedex, 2011.

Ben Hamida, Amor, Chronik einer Revolution: Wie ein Gemüsehändler einen Präsidenten stürrzt, Books on Demand GmbH, Norderstedt, 2011.

Blundy, David and Lycett, Andrew, Qaddafi and the Libyan Revolution, Little, Brown and Company, Boston, Toronto, 1987.

Darraj, Susan Muaddi, Hosni Mubarak, Chelsea House, New York, 2007.

Dresch, Paul, A History of Modern Yemen, Cambridge University Press, Cambridge, 2002.

Erdle, Steffen, Ben Ali's 'New Tunisia' (1987-2009): A Case Study of Authoritarian Modernization in the Arab World, Klaus Schwarz Verlag, Berlin, 2010.

Ezrow, Natasha and Erica Frantz, Dictators and Dictatorships: Understanding

Authoritarian Regimes and their Leaders, The Continuum International Publishing Group, New York, 2011.

Frank, Justin A., Bush on the Couch, HarperCollins, New York (?), 2004

Freud, Sigmund, Gesammelte Werke, Chronologisch geordnet, 10. Und 13. Band, Imago Publishing Co., Ltd., London, 1947, 1949.

Freud, Sigmund, Totem and Taboo, Resemblances between the psychic lives of savages and neurotics, Random House, New York, 1918.

Freud, Sigmund and Josef breuer, Studies on Hysteria, The Hearst Corporation, New York, 1966.

Gaddafi, Muammar with Edmond Jouve, My Vision, Conversations and Frank Exchanges of Views with Edmond Jouve, John Blake, London, 2005.

Hare, Robert D., Psychopathy: Theory and Reearch, John Wiley & Sons, Inc., New York, London, Sydney, Toronto, 1970.

Heikal, Mohamed, The Road to Ramadan, Collins, St James's Place, London, 1975.

Heikal, Mohamed, Autumn of Fury: The Assassination of Sadat, Andre Deutsch Limited, London, 1983.

Husic, Sead, Psychopathologie der Macht: Die Zerstörung Jugoslawiens im Spiegel der Biografien von Milosevic, Tudjman und Izetbegovic, Verlag Hans Schiler, Berlin, 2007.

Kernberg, Otto F., Aggression in Personality Disorders and Perversions, Yale University Press, New Haven and London, 1992.

Kernberg, Otto F., Love Relations: Normality and Pathology, Yale University Press, New Haven and London, 1995.

Kernberg, Otto F, Herausgbeber, Narzißtische Persönlichkeitsstörungen, Deutsche Übersetzung und Bearbeitung Bernhard Strauß, Shattauer, Stuttgart, New York, 1996.

Kernberg, Otto F., Ideologie, Konflikt und Führung: Psychoanalyse von Gruppenprozessen und Persönlichkeitsstruktur, J.G. Cotta'sche Buchhandlung Nachfolger GmbH, Stuttgart, 2000, (Ideology, Conflict, and Leadership in Groups

and Organizations, Yale University Press, New Haven, 1998).

Kernberg, Otto F., Aggressivity, Narcissism, and Self-Destructiveness in the Psychotherapeutic Relationship: New Developments in the Psychopathology and Psychotherapy of Severe Personality Disorders, Yale University Press, New Haven, 2004.

Kohut, Heinz, The Analysis of Self: A Systematic Approach to the Psychoanalytic Treatment of Narcissistic Personality Disorders, Internaitonal Universities Press, Inc., New York, 1971.

Kohut, Heinz, Narzissmus: Eine Theorie der psychoanalytischen Behandlung narzisstischer Persönlichkeitsstörungen, Suhrkamp Verlag, 1973.

Lohmann, Heiner, Strukturen mythischen Denkens im Grünen Buch Mu'ammar al-Qaddafis: Eine kommunikationstheoretische Untersuchung zur Rationalität eines soziozentrischen Weltbildes im Islam mit einer Neuübersetezung des Grünen Buches im Anhang, LIT Verlag Dr. W. Hopf, Berlin, 2009.

Marley, Ben, Webster's Guide to World Governments: Syria, featuring President Bashar al-Assad and Prime Minister Muhammad Naji al-Otari, Six Degrees Books, Laverne, TN, 2011.

Mattes, Hanspeter, Qaddafi und die islamische Opposition in Libyan, Deutsches Orient-Institut, Hamburg, 1995.

Murphy, Emma C., Economic and Political Change in Tunisia: From Bourghiba to Ben Ali, Macmillan Press Ltd, London, 1999.

Palin, Sarah, An American Life, HarperCollins, New York, 2009.

Palin, Sarah, America by Heart: Reflections on Family, Faith, and Flag,

HarperCollins, New York, 2010.

Qaddafi, Muammar, Escape to Hell and other stories, Stanké, Montreal, New York,1998.

Riemann, Fritz, Grundformen der Angst: Eine tiefpsychologische Studie, Ernst Reinhardt Verlag, München, Basel, 1961, 2006.

Sachse, Rainer, Histrionische und Narzisstische Persönlichkeitsstörungen, Hogrefe Verlag für Psychologie, Göttingen, Bern, Toronto, Seattle, 2002.

Sadek, Hassan, Gaddafi, Heinrich Hugendubel Verlag, Kreuzlingen / München, 2005.

Sicker, Martin, The Making of A Pariah State: The Adventurist Politics of Muammar Qaddafi, Praeger, New York, Westport, Connecticut, London, 1987.

Spaas, Lieve (ed.), Echoes of Narcissus,Berghahn Books, New York, Oxford, 2000.

Wiess, Walter M., Hg. Die Arabischen Staaten: Geschichte – Politik – Religion – Gesellschaft – Wirtschaft, Palmyra, Heidelberg, 2007.

Wirth, Hans-Jürgen, Narcissism and Power: Psychoanalysis of Mental Disorders in Politics, Psychsozial-Verlag, Giessen, 2002, 2009.

Wöhler-Khalfallah, Der islamische Fundamentalismus, der Islam und die Demokratie: Algerien und Tunesien: Das Scheitern posatkolonialer „Entwicklungsmodelle" und das Streben nach einem ethiscen Leitfaden für Politik und Gesellschaft, VS Verlag für Sozialwissenschaften, Wiesbaden, 2004.



صدر عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

سياسة

مجموعـات

مجموعة الصحفي روبرت فيسك

- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - (في كتاب واحد)
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - الجزء الأول الحرب الخاطفة
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - الجزء الثاني الإبادة
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - الجزء الثالث إلى البرية
- ويلات وطن
- زمن المحارب

مجموعة د. عصام نعمان

- هل يتغيّر العرب؟
- العرب على مفترق
- أميركا والإسلام والسلاح النووي
- حقيقة العصر - عصام نعمان وغالب أبو مصلح
- على مفترق التحوّلات الكبرى... ما العمل؟

مؤلفات د. محمد حسنين هيكل

- الحل والحرب!
- آفاق الثمانينات
- قصة السويس
- عند مفترق الطرق
- لمصر لا لعبد الناصر
- زيارة جديدة للتاريخ
- حديث المبادرة
- خريف الغضب
- السلام المستحيل والديموقراطية الغائبة
- وقائع تحقيق سياسي أمام المدعي الاشتراكي
- بين الصحافة والسياسة

مجموعة د. سليم الحص

- صوت بلا صدى
- تعالوا إلى كلمة سواء
- سلاح الموقف
- في زمن الشدائد لبنانياً وعربياً
- للحقيقة والتاريخ
- نحن والطائفية
- عصارة العمر
- محطات وطنية وقومية
- ما قَلَّ ودَلّ
- ومضات في رحاب الأمة

مجموعة د. وليد رضوان

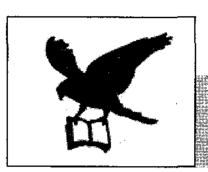
- مشكلة المياه بين سوريا وتركيا
- العلاقات العربية التركية
- تركيا بين العلمانية والإسلام

مجموعة جوزيف أبو خليل

- رؤية للمستقبل
- لبنان وسوريا مشقة الأخوة
- قصة الموارنة في الحرب
- لبنان... لماذا؟

مجموعة بول فندلي

- من يجرؤ على الكلام
- الخداع
- لا سكوت بعد اليوم
- أميركا في خطر

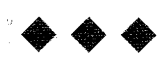


مجموعة كريم بقرادوني

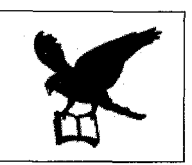
- □ **لعنة وطن**
- □ **السلام المفقود**
- □ **صدمة وصمود**

مجموعة شكري نصرالله

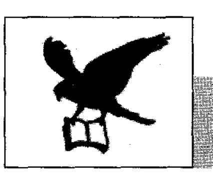
- □ **مذكرات قبل أوانها**
- □ **السنوات الطيبة**
- □ **ستّ الستّات** - علياء رياض الصلح



- □ **تقي الدين الصلح سيرة حياة وكفاح** - (جزآن) - عمر زين
- □ **مبادئ المعارضة اللبنانية** - حسين الحسيني
- □ **رؤية للمستقبل** - الرئيس أمين الجميل
- □ **الضوء الأصفر** - عبدالله بو حبيب
- □ **الخلوي أشهر فضائح العصر** - ألين حلاق
- □ **أصوات قلبت العالم** - كيري كندي
- □ **الخيارات الصعبة** - د. إيلي سالم
- □ **أسرار مكشوفة** - اسرائيل شاحاك
- □ **الولايات المتحدة الصقور الكاسرة في وجه العدالة والديموقراطية** - تحرير برند هام
- □ **مزارع شبعا حقائق ووثائق** - منيف الخطيب
- □ **الأشياء بأسمائها** - العقيد عاكف حيدر
- □ **اللوبي** - إدوار تيفنن
- □ **أرض لا تهدأ** - د. معين حداد
- □ **الوجه الآخر لإسرائيل** - سوزان نايثن
- □ **مساومات مع الشيطان** - ستيفن غرين
- □ **بالسيف أميركا وإسرائيل في الشرق الأوسط** - ستيفن غرين
- □ **الأسد** - باتريك سيل
- □ **الفرص الضائعة** - أمين هويدي
- □ **طريق أوسلو** - محمود عباس
- □ **الأمة العربية إلى أين؟** - د. محمد فاضل الجمالي
- □ **النفط** - د. هاني حبيب
- □ **الصهيونية الشرق أوسطية** - إنعام رعد
- □ **حربا بريطانيا والعراق** - رغيد الصلح
- □ **نحو دولة حديثة بعيداً عن ٨ و١٤ آذار** - الشيخ محمد علي الحاج العاملي
- □ **الحصاد** - جون كوولي
- □ **عاصفة الصحراء** - اريك لوران
- □ **حرب تحرير الكويت** - د. حبيب الرحمن
- □ **حرب الخليج** - بيار سالينجر وإريك لوران
- □ **المفكرة المخفية لحرب الخليج** - بيار سالينجر وإريك لوران
- □ **الماسونية - دولة في الدولة** - هنري كوستون
- □ **النفط والحرب والمدينة** - د. فيصل حميد
- □ **رحلة العمر من بيت الشعر إلى سدّة الحكم** - د. عبد السلام المجالي
- □ **الدولة الديموقراطية** - د. منذر الشاوي
- □ **التحدي الإسلامي في الجزائر** - مايكل ويليس
- □ **السكرتير السابع والأخير** - ميشيل هيلير
- □ **التشكيلات الناصرية في لبنان** - شوكت اشتي
- □ **كوفي أنان رجل سلام في عالم من الحروب** - ستانلي ميسلر
- □ **عزيزي الرئيس بوش** - سيندي شيهان
- □ **الولايات غير المتحدة اللبنانية** - شادي خليل أبو عيسى
- □ **رؤساء الجمهورية اللبنانية** - شادي خليل أبو عيسى
- □ **أوزبكستان على عتبة القرن الواحد والعشرين** - إسلام كريموف



- □ **أوزبكستان على تعميق الإصلاحات الاقتصادية** - إسلام كريموف
- □ **العرب والإسلام في أوزبكستان** - بوريبوي أحمدوف وزاهدالله مندوروف
- □ **إسرائيل والصراع المستمر** - ربيع داغر
- □ **أبي لافرنتي بيريا** - سيرغو بيريا
- □ **الفهم الثوري للدين والماركسية** - زاهر الخطيب
- □ **الديبلوماسية على نهر الأردن** - د. منذر حدادين
- □ **المال إن حكم** - هنري إده
- □ **قراصنة أميركا الجنوبية - أبطال يتحدّون الهيمنة الأميركية** - طارق علي
- □ **اللوبي الإسرائيلي وسياسة أميركا الخارجية** - جون ج. ميرشايمر وستيفن م. والت
- □ **على خط النار** - مذكرات الرئيس الباكستاني برويز مشرف
- □ **قرارات مصيرية: حياتي في دهاليز السياسة** - غيرهارد شرودر
- □ **امرأة في السلطة** - كارل برنستين
- □ **الطبقة الضاربة** - دايفد روثكوبف
- □ **ابنة القدر** - بنازير بوتو
- □ **إرث من الرماد** - تيم واينر
- □ **حكاية وطن** - ا.د. سري نسيبه
- □ **بلاكووتر - أخطر منظمة سرية في العالم** - جيريمي سكاهيل
- □ **حروب الأشباح** - ستيف كول
- □ **سنوات بلير** - ألستير كامبل وريتشارد سكوت
- □ **الأيادي السود** - نجاح واكيم
- □ **ستالين الشاب** - سيمون سيباغ مونتيفيوري
- □ **تعتيم** - بقلم آمي وديفيد جودمان
- □ **دارفور تاريخ حرب وإبادة** - جولي فلنت وألكس دي فال
- □ **بالعطاء لكلٍّ منّا أن يغيّر العالم** - بيل كلينتون
- □ **رئيس مجلس الوزراء في لبنان بعد الطائف ١٩٨٩ - ١٩٩٨** - محمود عثمان
- □ **تواطؤ ضد بابل** - جون كولي
- □ **العلاقات اللبنانية - السورية** - د. غسان عيسى
- □ **سوكلين وأخواتها** - غادة عيد
- □ **...؟! أساس الملك** - غادة عيد
- □ **الخلوي أكبر الصفقات** - غادة عيد
- □ **ما وراء البيت الأبيض** - جيمي كارتر
- □ **السلام ممكن في الأراضي المقدسة** - جيمي كارتر
- □ **المصالحة - الإسلام والديموقراطية والغرب** - بنازير بوتو
- □ **قضيّة سامة** - يوست ر. هيلترمان
- □ **لبنان بين ردَّة وريادة** - ألبير منصور
- □ **الأمن الوطني الداخلي لدولة الإمارات العربية المتحدة** - عائشة محمد المحياس
- □ **سجن غوانتانامو - شهادات حيّة بألسنة المعتقلين** - مايفيتش رخسانا خان
- □ **في قلب المملكة - حياتي في السعودية** - كارمن بن لادن
- □ **هكذا.. وقع التوطين** - ناديا شريم الحاج
- □ **إرث من الرماد - تاريخ «السي.آي.أيه.»** - تيم واينر
- □ **لبنان: أزمات الداخل وتدخّلات الخارج** - مركز عصام فارس للشؤون اللبنانية
- □ **أميركا من الداخل** - د. سمير التنير
- □ **سوريا ومفاوضات السلام في الشرق الأوسط** - جمال واكيم
- □ **إنّه بن لادن** - بقلم جين ساسون
- □ **ضريبة الدم** - ت. كريستيان ميلر
- □ **في سبيل أفريقيا** - دنيس ساسّو نِغْويسّو
- □ **عبد الحميد كرامي - رجل لقضية** - نصري الصايغ
- □ **ابنة القدر** - بنازير بوتو
- □ **الطبقة الخارقة** - دايڤيد ج. روثكوبف
- □ **بوّابة الحقيقة** - عبد السلام المجالي



- **الأُخطبوط الصهيوني والإدارة الأميركية** - علي وهب
- **الصراع على السلطة في لبنان جدل الخاص والعام** - زهوة مجذوب
- **أوباما.. والسّلام المستحيل** - سمير التنّير
- **التحية الأخيرة للرئيس بوش** - منتظر الزيدي
- **حياة من أجل أفريقيا** - عبدالله واد
- **الأحزاب السياسية في العراق** - عبد الرزاق مطلك الفهد
- **عبر جدار النار** - موريال ميراك - فايسباخ
- **حقيقة ليكس** - إعداد مريم البسّام
- **وثائق ويكيليكس الكاملة: لبنان وإسرائيل - (الجزء الأول)** - إعداد مريم البسّام
- **وثائق ويكيليكس الكاملة - لبنان وإسرائيل - (الجزء الثاني)** - إعداد مريم البسّام
- **صيف من نار في لبنان** - الجنرال ألان بيلليغريني
- **غزّة في أزمة** - إيلان بابه ونعوم تشومسكي
- **صراع القوى الكبرى على سوريا** - جمال واكيم
- **قيود تتمزق** - شادي أبو عيسى
- **محو العراق** - مايكل أوترمان وريتشارد هيل
- **مهووسون في السلطة** - موريال ميراك - فايسباخ

يختلف الحكام العرب على كل شيء ويتفقون على أمر واحد: القضاء على «الربيع» لتصبح سنة الشعوب ثلاثة فصول فقط!

معمر القذّافي، حسني مبارك، زين العابدين بن علي وعلي عبدالله صالح، مجسّمات معروفة لسياسيين مهووسين في السلطة، لم يستطيعوا أن يتحمّلوا شعباً طالب بأقل ما يستحقه من كرامة وحريّة وكان مستعداً للموت من أجل هذه القيم، فسعوا جاهدين لكبح هذه المطالب بالسلاح، وحاربوا حتى النفس الأخير لحماية سلطتهم غير الشرعيّة.

يقدّم هذا الكتاب دراسة نفسيّة عن هوس هؤلاء السياسيين في السلطة، ويسأل: هل لدى الزعماء خلل في شخصياتهم بسبب صدمات في الطفولة أو بتأثير من عائلاتهم ومحيطهم الاجتماعي؟ أم هم أصحاء في الأساس، لكن السلطة أفسدتهم جميعاً؟ كي نفهم شذوذ أولئك السياسيين، لا بُدَّ من إحالتهم جميعاً إلى عيادات الطب النفسي، لكي نكون أكثر دقّة في تطبيق التحليل.

كتاب يدرس النرجسيّة المستفحلة في نفوس السياسيين، ولا سيما الزعماء. ويكشف أن النرجسيّة والسلطة توأمان. ويتطرّق إلى حياة أولئك الساسة ويعود إلى طفولاتهم وتاريخ عائلاتهم، ويكشف عن الأحداث والصدمات التي ساهمت في تكوين شخصياتهم.

ISBN 978-9953-88-614-5
9 789953 886145

شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص.ب. ٨٣٧٥: - بيروت - لبنان
تلفون: ٧٥٠٨٧٢ - ٩٦١١٣٥٠٧٢٢+
تلفون+فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٩٦١١٧٥٢٥٤٧+

tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر